هكذا عرفت الله

بقلم
سمية عبد الحليم عويس

دار الكلمة للنشر والتوزيع

٢١٣
ع س هـ

اللهم يا مسهل الشديد ، ويا ملين الحديد ..

يا من هو فى كل يوم فى أمر جديد ..

أخرجنى من حلَقِ المضيق إلى أوسع الطريق ..

بك أدفع ما لا أطيق ..

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/١٨٨٩٣

الترقيم الدولي : ٥ - ٢٣٦ - ٣١١ - ٩٧٧

دار الكلمة للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

٣٨ ش الثورة (السكة الجديدة) ت ، ف : ٢٢٤٣١١٥ ص . ب : ١٦٧

إهداء

إلى الذين أشقتهم أنفسهم وأهواؤهم فزاغت بهم عن سبيل الحق .

إلى الذين ظُلموا وانتصروا من بعد ما ظُلموا ...

إلى الذين أتعبتهم الحياة وبخستهم نصيبهم ...

إلى الذين جاهدوا وصبروا وصابروا ورابطوا ...

أهدى هذه القصة لعلها تهدئ من روعهم وتسكن قلـــوبهم وتهدى ألبابهم ... فتجارب الآخرين شموع تـــنير الـــدرب للحائرين !!

الكاتبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ
مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى
وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ
وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

[آل عمران : ١٩٥]

- ١ -

من حال إلى حال

ها هى الأيام تعدو ، والدنيا تنقلنى من حال إلى حال ، لكن فى ذاكرتى أياماً لن تمحوها رحى السنين ما حييت ، فذكرياتى أثمن ما نفحتنى الأقدار ، وآلامى محور تلك الذكريات التى حفرت أخاديداً فى حياتى ؛ لأنها لم تكن حياة عادية كحياة الآلاف من الكادحين أو العاطلين ، الذين يمرون بك وأنت تراهم بطرف عينك لأنهم لا يعنون شيئاً بالنسبة لك ولا يساوون حبة خردل فى تاريخ البشرية ، فكم حوت المقابر من مجهولين نبتوا من الأرض وعاشوا عليها ثم طوتهم فى أعماقها وكأنهم يوماً ما كانوا !!

وأراك تنظر إلى وأنت تقتحمنى بعينك قائلاً فى نفسك : لماذا هى مغرورة تحسب نفسها شيئاً مذكوراً ، وربما لا تعدو أن تكون كغيرها ممن وصفتهم بالمجهولين الذين أهملهم التاريخ واحتقرتهم الأقدار !!

ولك كل الحق .. فلن ألومك لأنك لم تعرفنى بعد فليس بغريب ذلك الاحتقار الذى يتناثر من كلماتك وتصوبه إلى نظراتك ؛ فإن من جهل شيئاً عافه وأنف منه وأسقطه من اعتباره ، حتى إذا علم عنه نزراً يسيراً عاد من رغبته عنه إلى رغبة فيه ، فإذا مر الزمن أحبه وأنس إليه ، فإذا ذكر بسابق نفوره منه تعجب وادعى مبالغة مخاطبه وأخذ لسانه يتدفق فيما نفر منه فى سابق عهده بالمدح والتفخيم والتعظيم ، وتلك حال ليست بغريبة على ابن آدم ! فطالما حوت نفسه من أسرار وامتلأت جعبته بالمتناقضات !!

ولن أطيل الجدل معك حتى لا يسبقنى الملل إلى نفسك ، فاستمع إلى قصتى لعلك تنتفع منها ببعض النفع أو تجد فيها تسلية تنسيك هموم الحياة وشجونها وكم فى الحياة من شجون !!

كانت حياتى السابقة مختلفة تمام الاختلاف عن حاضرى الذى أحياه الآن ، وصدق من قال : لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع !!

فقد ولدت لأبوين كريمين متحابين وكانت فرحتهما بى عظيمة .

وبعد سنة من مولدى جاء أخى الأصغر للحياة فازداد حبور الوالدين ونمت فرحتهما بولديهما وصارا لا يشحان علينا بأى جهد أو مال أو عناء .

وكبر الطفلان فى أحضان هذا البيت الدافئ الذى كان فى أطراف حى الظاهر بالقاهرة ، أو مصر القديمة كما يقولون أحياناً ، ولم يكن والدى ثرياً لكنه كان مستور الحال ، موظف فى مؤسسة النقل النهرى ، أما والدتى فقد حباها الله ببعض الثراء الذى كان يغنيها عن الإحساس بالضيق الذى تشعر به زوجة أى موظف مع انتهاء المرتب الشهرى .. ترك لها والدها ستة فدادين فى كوم النجار التابعة لطنطا كما كانت قد ورثت عن والدتها بيتين يدران عليها ريعاً معقولاً .

وعموماً فما أحسسنا يوماً بضيق المعاش ؛ ولذا فقد كنا من أسعد وأهنأ أطفال عائلتنا ، وهكذا دامت لنا الحال قريرة كأحسن ما يكون حتى أكملنا دراستنا فحصلت على الدبلوم وحصل أخى على بكالوريوس تجارة . ذلك الأخ الذى كان من أسباب دخولى لعالم

الخوف والقلق والحزن فى رحلة أيامى !!

كان صباى متفتحاً للحياة ، ولم أكن غريرة لكنى كنت معتدة بنفسى وأنوثتى ، فعشت كما أشتهى وارتديت كل سافر وفاخر حتى صرت أعجوبة بين لداتى فى الرقة والأناقة ، مع أنى لم أكن على قدر عال من الجمال لكنى كنت جذابة مغرية للعيون والحواس ، فالتف حولى شباب العائلة يخطبون ودى ويرسمون لأنفسهم فى أخيلتهم مستقبلاً مشرقاً معى لأنى موسرة الحال ممتلئة بآيات الأنوثة والدلال معروفة بالخلق والالتزام رغم مظهرى المغرى وملبسى الفاضح ، حتى أننى كنت أتعمد ارتداء الجيب الذى يظهر كل ساقاى لأظهر شامة فاتنة فى أعلى ساقى اليمنى .. ولعلم تدرك أن هذه السجية لم تكن غريبة آنذاك على بنات العائلات كما أن التدين كان مقتصراً على الوالدات والجدات لأنهن أخذن حظهن من الحياة وتمتعن كما يحلو لهن بمرحلة الشباب .. كما أن ذلك لم يكن يعنى آنذاك شيئاً من سوء الدب أو الفجور ، إنما تدلل بنات غير مستغرب ممن هن فى عمر الزهور .

وكثيراً ما رأيت صديقاتى يحلمن بالحب أو يعشن تلك التجربة التى تمر بها فتيات كثيرات ، لكن عقلى كان يرفض المرور بتلك التجربة المؤلمة ، فالحب إما جنة بعد عذاب .. أو عذاب فعذاب .. ولم أتمن كلتا الحالتين لنفسى أبداً !!

لكن الأقدار شاءت لى شيئاً آخر . .

فقد وقعت فى الفخ دون وعى .. بل فى غيبة من الوعى .. ودون

رغبة وسعى منى للوقوع فى حبال ذلك الكائن العجيب المسمى بالحب ، أجل .. وقعت فى ذات الشىء الذى طالما حذرت نفسى منه وابتعدت عنه ، أحببت ابن عمى فايز .. ونما الحب فى صدرى بلا وقود .. أعنى : أنه لم يكن يبادلنى حباً بحب ، لكنى كنت أعتبر سلامه العابر شوقاً خفياً ، وابتسامته لهفة ، وكلماته الرقيقة إعجاباً وتمنياً ، وشجعتنى نظرات كل من حولى لى على ذلك الشعور الفريد ، فكما اعتادت بعض الأسر أن تقول : هذا الولد لفلانة وهى له .. فهكذا قالوا علينا منذ الصغر .. كانت ألسنتهم دائماً تمنينى بتحقق فألى ، وكما أن عائلتنا اعتادت على التزاوج الداخلى وعدم الاغتراب إلا نادراً .. فنمى كل ذلك الحلم بداخلى وظللت أتمنى ما تمنوه سنوات كانت تصرفاته معى فيها تشبه المد والجزر ، وظنى أن تلك العلاقة الغريبة لأنى كنت بالنسبة له غير مغامراته الأخرى ، كنت معركة مضمونة لا تحتاج فيها لجهد أو كلام منمق أو تحديد مواعيد سرية دون علم الأهل ، وقد كان شغوفاً كغيره من الشباب بالمغامرة والإثارة والإخفاء بعكس الفتيات اللاتى يملن – فى الأغلب – إلى الوضوح والصراحة وراحة البال لأن الفتاة فى النهاية تخشى الفضيحة وكلام الناس وتتمنى الاستقرار .

لكن سعادتى به – وإن كانت داخل إطار نفسى – كانت غامرة جميلة .. جمالاً خلب عقلى حينذاك وصور لى الدنيا كأنها أصبحت ملء يداى .. أشاعت فى قلبى الصغير سذاجة ساحرة وصوراً طاهرة لجنة ليس فيها سوانا .. فسهرت الليالى أترقب طيفه ، وأمزج دمعى بآهاتى لأنه بعيد عنى .. فى الجيش أو فى المصيف ، أريد أن أكتب له

فيتملكنى الخوف حيناً والخجل حيناً آخر .. ويزداد شوقى وحنينى فيتعسنى حبى ويشقينى كما أسعدنى وأفرحنى ، فأقنعت نفسى بأنه شاب كغيره من الشباب وحتماً سيعود إلى لأننى سأظل فى عينيه المرأة التى يحترمها ويتخذها زوجة يثق بها ويأمن على أولاده معها ، أما مغامراته فسوف تنتهى يوماً بلا ريب ..

وحفظته بروحى ، وأحببت آراءه ومواقفه التى كانت تظهر حبه للحياة وتمسكه بالقيم العسكرية التى كان يعتز بها اعتزازاً شديداً ويتحدث عنها فى كل مجلس !! وحانت ساعة الحرب عام ١٩٧٣م .. وجاءنا ليلة رحيله للجبهة مودعاً فرأيت الشحوب بادياً على محياه كأن الموت كان جاثماً على صدره ..

لكنه كان صلباً متماسكاً ، كانت رغبته فى الحياة تصارع مبادئه العسكرية وكره أن يظهر ضعفه أمامى .. قلت له :

- هل تتركنى يا فايز وليس لى فى الحياة سواك ؟

- إنه الواجب يا نادية وليس أمامى خيار . أم ترانى أركن فى المنزل كالنساء ؟!

- سأشتاق إليك ..

- كفكفى دمعك فسوف أعود منتصراً بإذن الله .. صدقينى .. حتماً سأعود .. إن الحياة تنادينى .. عودى لغرفتك وادعى لى أن أعود سالماً .. وداعاً ..

- ٢ -

الغدر نار تحرق الأوفياء
ولا يشعر بلهيبها الغادرون !!

مسكين أيها القلب المحب المشتاق .. لم تكن تعلم ما تخبئه لك الأيـام فالحب سكين لا نشعر بجرحها إلا حين تخدش مشاعرنا وتنـزف منهـا قلوبنا ، بت أنتظره ليالى طوالاً .. وحين عاد منتصـراً زاد زهـوه بنفسـه وطغت مشاعره الأنانية على أية مشاعر أخرى خـارج حـدود نفسـه .. كانت رحلة حبى له رحلة انتظار طويلة أفقت منها بعد فوات الأوان !!

نادت على أمى وأنا فى الشرفة أتلظى بنـار الانتظـار ويختـرق الـبرد اللاسع عظامى .. كانت تحدث نفسها كـثيراً حزنـاً علـى حـالى دون أن يدرى قلبها العطوف أنى أسمعها .. مسكينة يا ابنتى .. عاد الفارس من معركته ليجعلك تنتظرينه انتظارًا من نوع آخر .. هكذا الدنيا لا تعطينـا كل ما تهفوا له نفوسنا اللاهثة دائماً خلفها !!

ظللت فى مكانى وعينى ذاهلة لا ترى شيئاً أفكر فـى حـالى معـه .. قلبى وعقلى أشد حيرة .. لم يطلب يدى من والدى معتمداً على الكلام القديم .. مكتفياً بدبلة اشتراها لى فـى عيـد مـيلادى وألبسـها لى وكـأن الأمر لا يحتاج لأكثر من هذا ، ثم استمر على حالته الأولى لاهياً عابثاً ، تطرق أخباره أسماعنا كـل يـوم .. وأظـل أنتظـره كـل موعـد أضـرب أخماساً بأسداس ، هل نسى موعدى ؟ أم حدث له مكروه ؟ حتى مللت

القلق وسئمت الانتظار .. لماذا أذللت نفسى له لهذه الدرجة ؟ تباً لهذا الحب الذى يذل صاحبه !! لكن صبراً .. عاجلاً أم آجلاً سوف يأتى .. إننى له وهو لى ، إن الحب الحقيقى لا يطفئه حرمان ولا يقتله فراق ولا تقضى عليه أى محاولة للهرب منه ؛ لأن الحبيب يظل شاخصاً فى الوجدان . ولكنه إذا كان يريدنى فلماذا لم يقدم على أية خطوة إيجابية ؟ لابد أنه غير جاد فى رغبته فى الارتباط ، فلماذا إذاً هذه الدبلة التى يخنق بها أصبعه ؟ ولماذا يربط نفسه بى وهو يعبث مع غيرى .. شقته جاهزة وحاله ميسورة ، ولكن أمثاله لا يعرفون قيمة الحب الصادق .. فهو لا يحتاج إليه لأن حياته مليئة بالعلاقات والمغامرات .. أما أنا .. فالحب هو كل شىء فى حياتى . إن الحب يطهر القلوب من الحقد والكراهية ويملأ الدنيا بالعبير ويجعل الشمس أكثر دفئاً .. إنه السعادة والنقاء ... ما قيمة الدنيا بدون عاطفة ؟ بدون مشاعر مرهفة صادقة ؟ وتعاملات رقيقة ؟ وإذا كان الإنسان يشقى ويبحث جاهداً عن المال والجاه والثروة والمنصب فأولى به أن يبحث أولاً عن الحب لأنه إذا وجده وجد النافذة التى يطل منها على العالم ليتنفس الهواء النقى الصافى .. هذا هو رأيى فى الحب .. قاعدة النجاح فى كل شىء . هو الصدق والإخلاص والقيمة الحقيقية فى الحياة .. هو شجرة الورد التى كلما ذبلت منها زهرة انبثق فيها برعم .. ولهذا أشعلت قلبى لمن أحببته كجذوة لكنه ما فتئ يخمد بريقها ويكتم جيشانها بغروره وأنانيته وعربدته .. ورغم ذلك لم تنطفئ تلك الجذوة بل ظلت مشتعلة

كالشمعة تدفئه وتحترق لإسعاده ..

أخرجنى صوته فى الداخل من شرودى .. فأفقت لأجد شعرى مبتلاً بقطرات المطر والدمع يبلل وجنتى .. دخلت إلى حجرتى من باب جانبى وأنا أشعر بالحمى تكاد تفتك برأسى وبالرعشة تفتك بجسدى الناحل .. ارتميت على الفراش والألم يعتصر قلبى .. سمعت أمى ترحب به وتسأله :

- لماذا تأخرت يا فايز ؟

- كنت فى عمل هام .. واسمعى يا خالتى .. أنا لا أحب كثرة الأسئلة .. إننى رجل حر فيما أفعل .. وإن لم تعجب طريقة حياتى نادية فليشق كل منا طريقه بمفرده ..

- ما هذا الكلام يا بنى ؟ أشعر منذ فترة أنك لا تريد أن تكمل مع ابنتى .. عموماً نادية أحسن البنات وتستأهل كل خير .. فأفصح عما بداخلك ولا تضغط على نفسك أكثر من ذلك .. لا ، لقد صبرنا على طباعك الغريبة كثيراً وصلتنا بكم هى ما يمنعنى من الكلام ، ولكن لكل شىء آخر والكرامة هى أهم شىء .

- أفندم !! إذن فلتعلمى أن ابنتك لا تغرينى أبداً ، ولولا لهفتها على ما خطبتها ثم إننى أحسن شباب العائلة وأنت تعلمين ذلك .

ثم أخبرينى لمن تكنزين فدادينك وأملاكك .. اكتبى شيئاً لنادية وسوف نتزوج .. إن الحياة صعبة .. وأنا لا أطيق مسؤوليات الزواج

بمفردى ، إننى أريد أن أستمتع بحياتى .. فلست ممن يقدس الهم والعيال والفاقة .

- ما هذا الكلام يا فايز .. إن الرجل الشهم لا يعيش من أموال زوجته .. ثم إن عمك رغم أنه يعلم كل شىء عن أملاكى لم يطالبنى يوماً بشىء وما قبل يوماً أن أنفق شيئاً من مالى على البيت .. بل كنت أنفق بإرادتى دون علمه ، ألهذا خطبت ابنتى وعلقتها بك ؟ هل تعرف أمك بما تقوله الآن ؟

- أمى وأبى يعلمان كل شىء .. وليس لأحد أن يتدخل فى شؤونى .. ها .. موافقة ؟

- لا لست موافقة .. لن أبيع ابنتى .. ولن أشتريك بأملاكى .. وستظل ابنتى فى دار أبيها معززة مكرمة .. من يريدها يريدها لنفسها وحسب ، وإلا فلا .. والزمان كفيل بعلاج جراحها منك أيها الغادر .

سمعت كل شىء .. وسمعت معه شهقات قلبى المكلوم .. ظهر على حقيقته البغيضة .. لكن تلك الشهقات لم تكن شهقات حب ولهفة ، بل كانت شهقات ندم وأسى على ما ضيعت من سنوات مع ذلك الوغد اللئيم .. وداعاً أيها الحب .. إن فيك من الألم أكثر مما فيك من الحنان ، ومن النار أكثر مما فيك من الظلال ، ومن صخب البحر أكثر من السلام والوئام .. وداعاً أيها المخلوق الرقيق .. فلم تعد صالحاً لهذا الزمان ... شوهوك بالشهوات والمصالح والرغبات .. لقد غشيت عينى

فلم أَرَ بك الحقيقة ، ذهلت عن مساوئك أيها الحبيب الغادر فشممت رائحة الخيانة فى عفونة ضميرك كأنها الوفاء .. لكن هذا قدرى .. وليس لنا من أقدارنا مهرب .

عانيت بعدها شهرًا فى الحميات ، من أثر تلك الليلة الباردة القاسية ، كنت كجثة فى الفراش الأبيض ، وبينما كان والداى يمرضانى .. كان أخى هارباً من المنزل بعد أن سرق من والدى مبلغاً كبيراً لينفقه على مزاجه الخاص ، كان عربيداً كبيراً .. يسرق لينفق على الراقصات ، وكانت أخباره عند أبى باستمرار ، وكلما واجهه أقسم بأنه مظلوم مفترى عليه .. قلب أبى الحنون عاجز عن طرده أو حرمانه من المال .. فظل أخى بعد تخرجه ضائعاً وتوسط له أبى ليعمل فى بنك .. وبالفعل عمل فترة ثم فاجأ أبى بأنه يرغب فى العمل الحر لأنه لا يجد نفسه فى سلك الوظيفة .. واستطاع أبى بعد مجهود أن يدبر له مبلغاً ليبدأ به عملاً حراً ومشروعاً يكبره بمجهوده .. ولكن مع الأسف أخذ المال وهرب فترة من المنزل عشنا خلالها أسود أيامنا خوفاً من مغبة أفعاله وقلقاً عليه .. ثم عاد صفر اليدين وزعم أن المال قد سرق وأن شريكه امتنع عن مشاركته دون مال !! وتجرع والداى الصدمة وسكتا ... وهكذا أصبح لا يملك وظيفته ولا مشروعاً ... وأخذ يسحب المال من أبى تارة ومن أمى تارة أخرى .. حتى يئسنا من صلاحه .. وعاد ذات ليلة من الخارج مخموراً فطرده أبى من المنزل وظل غائباً لا نعلم عنه شيئاً حتى آوتنى جدران المستشفى .

ظللت طريحة الفراش أهذى .. حتى أضحت العيون لا ترى فىّ إلا فتاة ذابلة فى وجهها صفرة الموت ، لكن داخلى كان مسرحاً لصراعات عنيفة ، تظهر فى كوابيس لا تنتهى .. وكأن لسان حالى يقول لمن يرانى فيشفق على أو يتمنى شفائى : دعونى للموت حتى أستريح ، لا يظن أحدكم أنى بت أخشاه .. بل لقد أضحى أملى الذى أتلهف عليه .. ليت روحى تفارق جسدى المظلم .. فليس للموت فى نفس البائس من رهبة ، إذا كانت الحياة قد أصبحت ظلمات متلاطمة .. ليتنى أخرج من دنياكم فيوارينى التراب لأشعر بهدأة الموت كما شعرت بمشاق الحياة وعراكها .. آه .. ما أحبك إلى نفسى أيها الموت .. هلم إلى .. إننى جد تواقة لك .. مشتاقة لأسرك ، لقد أصبحت اليقين الوحيد فى عيناى .. أصبحت أحب إلىّ بظلماتك من الشمس التى أصبحت تحرق جسدى وتخنق أنفاسى .. ومن الحياة التى باتت جاثمة على صدرى .. أنقذنى من براثنها أيها الموت .. بربك لا تدعنى لنهار جديد ، يقولون : إنك مصيبة .. لكنى أراك الآن نعمة كبرى .. هيا أدركنى أخرس لسانى وشل حركاتى وانه أنفاسى .. أسرع أيها الموت .. لعل عالم الأموات ينسينى مرارة عالم الأحياء .

لكن الموت لم يجبنى .. لم يرحمنى .. حتى الموت ضن على بنفسه ، مخلوق عجيب يسعى لمن يفر منه وينأى عمن يطلبه .. إنها معجزة الحياة والموت .. الأولى تعجزنا عن فهمها ، والثانية تنقلنا إلى عالم المجهول .. فسبحان خالق الموت والحياة !!

- ٣ -

السعادة شبح لا يراه إلا المجانين

عرفت الحب فى حياتى مرتين .. كان فى الأولى لبشر مثلى .. وكان وهماً وخداعاً . أما الثانية فكان حبى لله الخالق الرحيم .. وكانت الحقيقة الوحيدة التى عرفتها فى حياتى هى علاقتى بالله وحبى له .. لكنى لم أصل إليه إلا بعد سنوات طويلة من الجهل والعناء والشقاء .. أكمل لك أحداثها المريرة لأنى كما قلت لك سابقاً .. أجد فى تلك الأحداث آلاماً قلما تجتمع فى حياة شخص واحد .. لكن الأقدار ساقتها لى جملة واحدة على مدى خمسين عاماً تقريباً ، فكانت نفسى التائهة تدور فى رحى من العذابات أو فى دائرة من الأشواك الحادة التى ألهبت روحى جراحاً فتقت للموت مرات عديدة لكنه كان دائماً سيد الموقف .. هرب منى كأن لم يسمعنى .. ربما ليمهلنى حتى أكتب هذه الصفحات .. ولكل أجل كتاب : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤] .

لم أكن قد أكملت بعد حصولى على الدبلوم .. فسعت لى إحدى جاراتنا فى محل عملها حتى قبلونى .. هناك فى مصلحة تحقيق الأدلة الجنائية .. لأدخل مرحلة أسوأ فى حياتى .. مرحلة الزواج ، إذ رأتنى

موظفة معنا وأعجبت بى ، وكانت طيبة القلب فوثقت فيها .. قالت لى :

- أنت يا نادية مثل ابنتى ، ولا يعجبنى شرودك الدائم .. هل عندك مشاكل ؟

- المرء دائماً فى هم طالما هو على قيد الحياة .

- لكنك شابة وصغيرة على ذلك الحال .. الدنيا دائماً تسير عكس ما نحب ، ولا تعطينا إلا القدر الضئيل من أمانينا ..

- الحمد لله على كل حال ..

- أريد أن أفاتحك فى موضوع .. سأزورك الليلة فى منزل أسرتك لأتعرف على والدتك .. لابد أنها لطيفة المعشر مثلك يا نادية .

- أشكرك يا أستاذة هناء .. سنسعد كثيراً بزيارتك .

- إذن .. لقاؤنا فى السابعة بإذن الله .

- أهلاً بك وسهلاً .

زارتنا السيدة هناء .. وحدثت والدتى فى موضوعها الهام ، فاتحتها فى أمر خطبتى من قريب لها فى شركة الخزف والصينى .. يكبرنى بتسع سنوات .. قالت :

- والله لأنى أحبك يا نادية كابنتى اخترته لك .. نعم الشاب .. أدب وأخلاق وعائلة محترمة .. وسوف ترينه وإن لم يعجبك فلك مطلق الحرية فى اختيارك لن يجبرك أحد على شىء لا ترغبين فيه .

فردت أمى :

- بالطبع لن يجبرك أحد يا ابنتى .. إنه زواج .. عمر بأكمله .. وأنت من ستعاشرينه .

وهكذا انطلقت السيدة هناء لمنزل الخطيب المنتظر لتكون واسطة الخير وتمت الخطبة .. ولم أجد فى قلبى الفرحة التى تتمناها أية فتاة .. بل لم أشعر تجاهه بأية مشاعر .. لم أحس يوماً أن هذه هو الشخص الذى كنت أحلم بالارتباط به ، بل على العكس .. كنت أتعجب من بعض تصرفاته بالذات مع والدته ؛ إذ كان يحرص حين يزورنا فى فترة الخطبة التى لم تزد عن أربعة أشهر – على أن يجلس بجانبها ملتصقاً بها بشكل مثير للدهشة والاشمئزاز .

وقد لاحظ والداى نفس الشىء ولكنهما عللا ذلك بأنه ربما كان متعلقاً بوالدته أكثر من اللازم .

ورفض نبيل أن يجهز لنا شقة مستقلة وأصر على أن نقيم مع والدته فى شقتها ، فلما طالبه والدى بضمان لحقوقى ثار وقال :

- ليس بين الأزواج ضمان حقوق .. ستكون نادية زوجتى وما أمتلكه سيكون ملكاً لها . وكعادة والدى استسلم ووثق بنبيل ، وطمأنتنى والدتى قائلة :

- أشعر أن نبيل ابن حلال وسوف يرعاك وربنا يبارك لكما فى

حياتكما بإذن الله ، ثم إنه حريص على أمه ولذا سيكون حريصاً عليك فمن لم يكن فيه خير لأهله لن يكون فيه خير لأى أحد .

وتم الزواج ، وظللت بالطبع فى عملى برغبة نبيل ، لكننى فوجئت به بعد مرور شهرين من الزواج يطالبنى بمرتبى الذى كان عشرة جنيهات وأربعين قرشاً .. فلما رفضت وأنكرت عليه ذلك قال لى :

- أنت زوجتى ومن حقى عليك أن تطيعينى .

- لكنك موسر ، ومرتبى هذا أنفقه على لوازمى الخاصة ..

- لا يا هانم .. مالى الخاص لا علاقة لك به أبداً .. أنفقه أو أخزنه أو أرميه فى الطرقات .. ليس هذا من شأنك !!

- إنك ظالم يا نبيل .. ومالى ليس من حقك ولن تنال منه مليماً .

فوجئت به بعد كلمتى هذه ينهال على صفعاً وركلاً كأنه فى حلبة مصارعة حتى أفقدنى القدرة على القيام من الأرض .. وبعد برهة وجدتنى فى فراشى وأمه تقول له :

- لا تضربها أيها الأحمق بهذه الطريقة فتجر علينا متاعب مع أهلها .

ثم غمزته وانصرفا ليتركانى فريسة لدموعى وأوجاعى .. وزارتنى أمى فى الصباح بالمصادفة فصدمت من منظرى .. أما حماتى فقد تعللت لها بأنى وقعت على الدرج وأنا فى طريقى للعمل ، وادعت بأنهما أحضرا لى الطبيب وأن الموضوع بسيط !!

اتصلت أمى بأبى الذى جاء وحملنى إلى منزله وظللت فى الفراش حتى تماثلت للشفاء ، وبالطبع رويت لهما ما فعل ذلك الوحش بى ، فما كان من أبى أن طلب منى أن أسايسه وأعطيه راتبى ووعدنى بإعطائى ما أحتاج إليه دون علمه ..

فرجعت لمنزل نبيل الذى لم أشعر يوماً أنه منزلى .. ذلك المنزل الذى عرفت فيه معنى الوحشية والغرابة فى كل شىء .

وبعد مرور سنة من الزواج شعرت بجنين يدب فى أحشائى ، فلما أخبرته لم يبد عليه أنه سمع شيئاً فدهشت لهذا الرجل الذى لا يعنى بى كزوجة ولا يفرح بحمل ولا يهش لأبوته .. وتحسرت على شبابى الذى ضاع وعمرى الذى سينقضى مع زوج قاسٍ غليظ الطباع .

وبدأت ألاحظ أن بيته أصبح كالملاهى الليلية ؛ فعندما يأتى المساء يبدأ وأمه فى استقبال الرجال الغرباء ويقضون الوقت فى الرقص ومعاقرة الخمر ، وتخيل كل ما يحلو لك فلن تبالغ فيما كان يحدث بين أمه وهؤلاء الرجال بعلمه وأمام عينيه .. وحين ينصرفون قرب الفجر يدخل مع أمه غرفتها لينام معها .. ويتركنى – وأنا زوجته – أنام بمفردى طوال الليل .. فقد انقطعت علاقته بى كزوجة بعد زواجنا بشهر واحد !!

وذات ليلة كنت فى ردهة المنزل أنظف قطعة من الأثاث .. فدق جرس الباب فأسرع وفتحه لأجد أمامى أحد أصدقائهما وأنا أرتدى

ثياباً شفافة .. جريت إلى غرفتى وأنا فى قمة حيائى ودهشتى من ذلك الرجل الذى لا يعرف شيئاً عن الرجولة .. لا يغار على زوجته ويرضى لأمه فعل الرذائل ويعيش معها حياة غريبة تنطوى على عجائب وأسرار !!

أسرع خلفى بعد أن أدخل الضيف وسألنى فى حدة :

- لماذا جريت إلى غرفتك دون أن تسلمى على الضيف ؟

- عجباً لك ! أتريدنى أن أقف أمامه بملبسى هذا ؟ ألا يكفيك أنك لست كالرجال ويرضيك أن يرانى بهذا الشكل ؟!

وكالعادة انهالت على ضرباته وأنا حامل فى شهرى السادس ، فقد صوابه وجن جنونه لأنى أريد أن أحافظ عليه وعلى شرفى ولم يراع أنى حامل فى قطعة منه .. ولم يتركنى إلا بعد أن جاءت أمه وأنقذتنى من بين يديه .. ثم خرجا لضيفهما وتركانى أبكى دماً على ما وصلت إليه حالى .

وهكذا سارت معه جميع أيامى إهانات وحرمان .. يأخذ راتبى بأكمله ويترك لى ستين قرشاً للمواصلات ، وقبل أن أنزل للعمل تضع لى أمه بعض الفول فى طبق صغير يكفى بالكاد طفلاً صغيراً .

وحين أهم بدخول المطبخ تقف أمه لى بالمرصاد وتمنعنى محتجة بأن هذا البيت بيتها وليس بيتى ولهذا فليس من حقى ممارسة حياتى فيه كما أحب !!

ماذا أقول لك ؟

هل مازلت مندهشاً متعجباً من قولى : إن قصتى تحمل من آيات العجب الكثير ؟

لا أظن !!

إن المرأة صادقة فيما ادعت ، فالبيت فعلاً ليس بيتى .. إن البيت لا يكون مسكناً حقيقياً ما لم يتوافر الشبع والدفء للروح قبل البدن ..

ولهذا لم أشعر أن لى بيتاً يؤوينى أو زوجاً يحمينى من غدرات الأيام .. وعدت أفكر فى الموت .. لى ولمن فى بطنى .. لكن تفكيرى فى الإجهاض فى هذه المرحلة من الحمل كان نوعاً من الجنون .

وحانت ساعة ولادتى وأنا أتمنى أن تكون ساعة نهايتى ، ورفض زوجى بالطبع أن ينقلنى إلى أية مستشفى .. فنزلت إلى أهلى وأنا فى حالة لا توصف من الآلام .. ووصلت دارهم وأنا على حافة الهاوية ، وكأنما كانت نفسى تتعجل النهاية ، ليت أمى لم تلدنى وليت عينى لم تر نور الحياة ، أشعر أنه لا مقر لى بهذه الأرض ولا وطن لى فيها ، ولم أر من الحياة إلا قبحها ، وجوعها وشقاءها .

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لى بأرض مستقرا

وجاءت ابنتى للحياة فى ذات اللحظة التى تمنيت فيها الخروج منها .. قطعة منى .. عينها العسلية الواسعة وشعرها البنى الناعم وخمرية

بشرتها .. تجعل حياة أية أم قريرة هنيئة .. لكن حياتى أنا تختلف ، حياتى تسممت حتى لم أعد يفرحنى شىء .. بل انتابنى إحساس رهيب وبشع حين احتوتها عيناى .. تمنيت لو أخنقها بيدى حتى ترحم من شقاء الدنيا وجحيمها .. ونظرت لنفسى فى المرآة فوجدت شبحاً كان فى غابر أيامه يفتن الرجال ويسترعى انتباه الدنيا بأسرها .. وبكت تلك الشابة المزهوة المترفعة التى وأدها الزمن وقتلها الظلم مرتين .. وترك مكانها إنسانه أخرى بجسد حى ونفس ميتة .. تحيا فى جحر للعذاب والحرمان والقهر والهوان .

يقولون : الخبيثات للخبيثين .. فتذكرت بجملتهم مقولة ساخرة أخرى : قيل لأرض حطيبة : من تشتهين أن يكون زوجك لو كنت امرأة ؟ قالت : الفأس !!

وهكذا أنا : أشتهى الموت .. فما عاد فى أرضى الحطيبة مأرباً لمن يجنى !!

يا موت خذ ما أبقت الـ أيام والساعات مني
بيني وبينك خطوةً إن تخطها فرجت عني

- ٤ -

كف أيها الإنسان عن التفتيش عن مصدر الشر .. إنه أنت

جان جاك روسو

أشعر أن النهاية مع زوجى آتية لا محالة ، لكنى لا أعرف هل تطول أيام عذابى معه حتى تعجز روحى عن مواصلة الحياة مع غيره ، أم يطلقنى وفى بعض حنين للحياة ؟

تعلمت كيف أختزن همى بداخلى ، وصرت أغبط كل عانس لأنها رحمت من جحيم الزواج ، أجل .. صار الزواج بالنسبة لى سجناً لا يحتمل ، أشد فى ظلمته من ظلمة الأجداث .

وأصاب المرض أبى فأقعده عن العمل بل أقعده عن الحركة بأسرها ، أمرضه بؤسه فى ولديه ، ابنته تحيا فى جحيم لا يستطيع إنقاذها خوفاً من كلمة [مطلقة] وولده فاسد عربيد . .

كان فساده بعيداً عن المنزل فى بداية الأمر ثم تخطى كل الحدود صار إخطبوطاً يعتصر والدى ذلاً وكمداً وسطوة .

حصل على عمل فى المطار وبعد فترة اشترك مع زميل له وفتحا محلاً لبيع الخمور ، واكتشفت أمى أن مال الشركة كان مصوغاتها التى ادخرتها

لى لتمنع عنى غوائل الزمن .. أخذها وقت انشغالها بأبى فى مرضه الأخير !!

وبعد مدة صار يعود للمنزل مخمورًا ، وسكت أبى كعادته .. لم يكن ليفعل شيئًا خاصة وهو مقعد على كرسى .. بل ما كان يفعل شيئاً قبلها ..

أرأيت ضائعة مثلى .. ومضيعة فى أهلى ومع زوجى ؟!

وكثر مبيتى عند أمى .. ولم يعبأ زوجى بذلك بل أحبه ربما لأنى كنت بالنسبة له ولأمه كاشفة لأسرارهما دخيلة على عالمهما الغريب المنفر ؟!!

ولكنه كان يصبحنى بوجهه المقزز أول كل شهر على مكتبى فى العمل مهدداً : إما المرتب وإما الفضيحة والمشاكل أمام الموظفين ، لم يكن ليتورع عن فعل أى شىء ..

وذات يوم أخبرتنى أمى أنها مضطرة للسفر إلى طنطا لأن محاسبها تأخر عليها وكانت فى حاجة إلى ريع الأرض .. وتركتنى مع والدى فى شقة أضحت كئيبة مظلمة باردة سودتها صفحات الألم وكدورات الهموم .

وفوجئت فى الثانية بعد منتصف الليل بباب الشقة يفتح وبصوت ضحكة رقيعة يهز جدران الشقة الحزينة ، ووجدت أخى يدخل الشقة وفى يده امرأة من بنات الليل تخفى أقل مما تبدى .. فصرخت فى وجهه ملتاعة :

- ما هذه يا أخا السوء ؟

فقال بوقاحته المعهودة :

- ادخلى غرفتك ولا تتدخلى فى شؤونى ..

- ألا ترحم أباك فى عجزه ومرضه وكبر سنه ؟

- اصمتى وإلا استعملت معك أساليب زوجك .. يبدو أنه هو القادر الوحيد على كبح وحشيتك !!

- أيها الحقير ! كف عن إهانتى .

- ألا تكفين عن عقدك وتعيشين الحياة كما هى .. كفى عن مبادئك الرفيعة وانزلى من عليائك إلى أرضنا أيتها الغريرة !!

عودى لبيتك واتركى لنا منزلنا أو الزمى حدودك .. أو فلتذهبى إلى الجحيم ولا تفسدى على ليلتى السعيدة !!

ثم أخذ دميته وأغلق خلفهما باب غرفته .. والتفت لأجد أبى خلفى على كرسيه دامعاً !!

أرأيت ما حدث لى من ذلك الأخ الذى من المفترض أنه عدتى فى أيامى السوداء ؟

أأنا زوجة فاشلة ؟ أمن الأفضل أن أعيش بلا أخلاق ومبادئ ؟ !

أهذه هى الدنيا ؟ حقد وفجور وشهوات وأنانية .. ؟

فى الصباح الباكر عادت والدتى من سفرها ، فلما أخبرتها بما حدث ذهبت إلى أخى وقالت له :

- هذا المنزل عاش محترماً طوال عمرنا ولن أسمح بغير ذلك .. ألم يكفك أننى ابتلعت سرقتك لذهبى وكتمتها بصدرى ويالها من مصيبة ، ارحل عنا ولا ترينا وجهك مرة أخرى .

- وما المقابل ؟ إن لى فى هذا المنزل مثل مالكم !!

- كفاك ما أخذته من ذهب كان كله من حق أختك .. ألا تعلم أننى كنت أحتفظ لها به فلا يعلم إلا الله كيف ستكون حالتها بعدى ؟!

فجأة دق جرس الهاتف ، فردت أمى وهى وجلة لأننا كنا فى الثامنة صباحاً ، وكان المتحدث هو زوجى :

- ذهبت بالأمس إلى ابنتك فى العمل فلم أجدها .. قولى لها إن لم يصلنى المرتب سأفضحها وسأقول لزملائها فى العمل إنها ناشز وأننى أرتاب فى سلوكها .

- حرام عليك يا نبيل . ألا تخشى الله ؟

- كلام المواعظ لا يؤثر فى .. إن لم تأت حالاً سوف ترى ما سيحدث لها .

ثم أغلق الخط .. أتتنى أمى فى غرفتى وأخبرتنى بما حدث .. قلت لها :

- لا تخشى شيئاً يا أمى .. سوف أذهب وأعطيه المرتب كاملاً .

- الله معك يا ابنتى .. هل تتركين معى أحلام ؟ !

- كلا .. سآخذها معى كفاك ما أنت فيه ..

دخلت من باب الشقة فوجدته متكئاً على أريكته يدخن الشيشة وأمه بجواره ، قالت لى :

- نورت يا ست .. أين اختفيت طوال هذه المدة .. عند أخيك المحترم ؟

- ماذا تريدان منى .. نحن هكذا أفضل .. أنتما على راحتكما وأنا وابنتى فى أمن بعيداً عن جوكما الفاسد .

قام من فوره وانتشل منى الطفلة بالقوة .. وأعطاها لأمه .. وقال لها :

- خذيها يا أمى للداخل أطعميها حتى أتفاهم مع هذه الحمقاء ..

أخذت أمه الطفلة .. فأقعدنى وقال لى :

- الحياة بيننا مستحلية . وأنا لا أطيقك وأريد أن أستريح منك .. سأسرحك ولكن بشرط .

- ما هو ؟

- تنازلى لى عن كل حقوقك وادفعى لى بعض التعويض ..

- أى تعويض .. إننى لا أملك أى شىء .

- هل تظنين أن بى خبلاً ؟! إننى أعلم أن أمك تملك عقارات دعيها تضحى من أجلك .. ماذا يساوى المال بجوار سعادة ابنتها ؟

- أنت فى منتهى الحقارة .. أمن أجل ذلك تزوجتنى ؟ قل لى بربك : ماذا فعلت من أجلى أنت ؟ متى كنت زوجاً بمعنى الكلمة ؟

- أنا خير من جميع أهلك .. ومن أخيك العربيد !

- أنت لا تفترق عنه فى شىء .. قل هذا الكلام لأحد غيرى لم ير مساوئك وأمك وحياتكما المريبة !!

- لن أطلقك إلا بشرطى الذى علمتيه وابنتك ستظل هنا فى بيتى لن تأخذيها إلا يوم الطلاق !

- كيف أترك ابنتى لكما أيها الظالم .. ابنتى لن تتركنى أبداً ..

- بل ستبقى هنا وسوف تذهبين أنت إلى أهلك .. هيا .. اخرجى ولا تعودى إلا بفدية رقبتك منى .

وأخرجنى بالقوة من الشقة رغم صراخ ابنتى .. لم يرحم توسلاتى ودموعى .. و لم يصدق وعودى له إننى سآتيه بما يطلبه .. وكيف لقلبه الذى لا يعرف الرحمة ولا الحنان الأبوى أن يرحم طفلة صغيرة من الصراخ .. هى فى الحقيقة قطعة منه ؟

مر أسبوعان وأنا فى عذاب ولهفة لا توصف على ابنتى .. ولم يكن مع أمى شىء من المال.. وحاولت بيع الأرض فلم تجد من يشتريها ، أما أخى

فقد رفض مساعدتى وقال لى : ليس لى شان بمشاكلك مع زوجك ..

البنت مع أبيها .. ليس هناك ما يحزن أو يخيف .. إنك تافهة .

وذات مساء دق جرس التليفون .. فوجدت نبيل يقول لى : الحقى ابنتك فى لحظاتها الأخيرة.

لا أعرف كيف ذهبت إلى ابنتى .. لكنى حين رأيتها عرفت أنها فعلاً فى لحظات وداعها لى .. قالا لى : إنها شربت بعض البطاس تظنه حليباً ..

فصرخت فى وجهيهما : وأين كنتما ؟!

أتعرف أين كانا ؟ كانا فى جلسة خاصة مع عميل لهما يمتعانه بجلسة سمر لطيفة ليقضى لهما مصلحة خاصة بهما ..

وفارقت ابنتى الحياة .. فارقت بسمتى حياتى .. ماتت أحلام وماتت معها أية أحلام لى فى الحياة وأية آمال لى فى الدنيا ..

أجل .. ماتت ابنتى .. ماتت بأيدى الذين قتلونى قبلها .. ذهبت التى كنت احتمل الحياة من أجلها .. والآن ماذا ينتظرون منى .. أأتركهم كأنهم أبرياء وأمكث وحدى أجتر الذكريات وأبكى ندماً وألما متجرعة الحسرات والآهات ؟! كلا .. لن يذوقوا طعم الراحة أبداً ..

لكنى ضعيفة .. كيف سأنتقم من هذين الجبارين ؟! وهكذا هويت من سفح الغضب إلى بئر الضعف لأجد نفسى بعد فترة أعانى الانهيار العصبى فى مصحة ، أهذا يكون مصيرى .. تُقتل ابنتى وألقى فى مصحة للأمراض

النفسية .. أبى مات من هول الصدمة .. كان يعشق ابنتى .. أحلام التى أصبحت ذكرى .. فى أصحاب القبور !!

وأمى تلازمنى .. وأخى كما هو الحال سارح فى مرتع الشياطين يتجرع الخمور والمجون حتى الثمالة !!

أما المجرمان .. فقد أثبتا بطرقهما الملتوية أننى مريضة نفسية أطعمت ابنتى الطعام المسموم ، لأتخلص من رباطى بزوجى ، وأشهد الجيران وأصدقاء السوء أننى ناشز هاجرة لزوجى تاركة لبيت الزوجية .. وضاع الحق بيد جدران السلطة .. أجل .. ضاع دم ابنتى المسكينة وضاعت منى للأبد !!

عجيبة أرض القضاء فى دنيانا .. خليط عجيب من المشاهد والشخصيات . منهم من يسعى للخير ومنهم من يسعى للشر ، هذا يطلب التبرئة وذاك يلح فى طلب العقاب !!

هذا ينتصف للفرد من المجتمع وذاك ينصف المجتمع على حساب رقاب العباد .. واحد يهيئ لسانه ليشهد بالحق .. وآخر يلوك فى فمه شهادة الإفك والزور .. هذا يفك حبال المشانق عن الأعناق وذاك يفتل للمذنبين الحبال !! [١].

وهذه هى دنيانا .. التى قتلونى مرات من أجلها .. ويلى منهم .. إلى متى أحيا فى دنياهم المقيتة .. رحماك يا أرحم الراحمين !!

---

(١) حلمى مراد : الجريمة لا تفيد .

- ٥ -

التطلع إلى الاستقرار والأمان
مجرد أحلام خادعة وأوهام زائفة !!

خرجت بعد شهرين من المصحة ، وبالطبع ذهبت مع أمى إلى منزلنا .. لم يعد لى سواها .. أضحت كل شىء بالنسبة لى فى هذا الوجود ، وبعد مدة ليست بالطويلة .. وصلتنى أخبار أطفأت فى قلبى النار التى أشعلها المجرمان بقتلهما لابنتى الحبيبة ، فقد عرفت أن نبيل قبض عليه لقتله أمه !!

بلى .. أمه بعد أن كانا سبباً فى موت ابنتى دون جرم من الصغيرة الضعيفة لكن انتقام الله كان لهما بالمرصاد.. فقد تورط نبيل فى عمليات نصب مع صديق له .. ذلك الذى ضربنى لأجالسه ، وبعدها خانه مع زوجته ، باعت زوجها لنبيل .. مقابل قطعة أرض طمعت فيها كانت ملكاً لحماتى .. وأخذ هو بدوره يضغط على أمه بكل السبل للتنازل له عن الأرض حتى يفى بوعده مع عشيقته .. فلما أصرت على الرفض وسبته ضربها بآلة حادة فى رأسها وهو مخمور فقتلها !!

هذه نهاية قصته مع أمه التى باعنى من أجلها .. ظلمنى وحرمنى حقى فى حياة طبيعية من أجلها .. ها هى الآن فى قبرها بين أطباق الثرى تلاقى جزاء أفعالها جزاء وفاقا .. ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ..

وها هو فى السجن .. محكوم عليه بالإعدام .. ولم أتمالك نفسى .. فذهبت إليه .. لا أدرى لماذا ؟ تشفياً أم رغبة فى الراحة التى تمنيتها طويلاً حيث أرى القصاص فيمن ظلمانى دون جريمة أو ذنب فى حقهما ..

وحين رآنى نكس رأسه وقال لى :

- لماذا جئت .. شماتة فى ؟

- هل أعجبك ما وصلت إليه .. أتذكر مبادئى التى كنت أدعوك إليها .. تلك المبادئ التى تجعل الإنسان محترماً .. هل تشعر الآن بتأنيب ضميرك على ما اقترفته فى حقى وحق كل من ظلمتهم ؟

- وما هو الضمير ؟ إننى لا أؤمن به .. إن ضميرى هو شهواتى واحتياجاتى .. ولا تظنى أنك قد نلت منى .. لقد رفعت قضية نقض وسأكسبها .. وسأخرج بعد حين لأريك من هو نبيل .. إنك ما زلت على عصمتى .. ولن أتهاون فى إذلالك وتأديبك !!

- أما زلت متعجرفاً متمادياً فى غيك .. ولكن مسم العجب وأنت قاتل أمه ؟ ! إن الضمير الذى لم تعرفه هو حياة النفس البشرية ، لكنك ميت .. إن كل إنسان قد تواتيه لحظات يموت فيها ضميره .. لكن يعود فيستيقظ .. لكنك لست إنساناً !!

ثم انصرفت وتركته وقد عزمت على طلب الطلاق .. وقد تسألنى :

لم لم أطالب به من قبل .. خاصة بعد خروجى من المصحة ؟

فأجيبك بأن حالتى لم تكن تسمح بأية نزاعات .. كنت فى حالة سلام مع نفسى ، أعيش مع ابنتى الراحلة وأتحدث إلى طيفها .. حتى آنس بها وإن لم تكن فى عالمنا .. وقد رحمنى الله فأنزل السكينة على قلبى .. فهدأت رويداً رويداً .. حتى أصابنى شعور بالفرح من أجلها . فرحت لأنها ارتاحت من دنيانا الموحشة .. أتت كنسمة ربيعية حالمة ورحلت كطيف وديع .. لم تتعب أحداً ولم تر عذاباً ولا عناء ورحمها القدر من انتمائها البغيض لذلك الأب الفاجر .. فحمدت الله .. ونزلت لعملى .. والعمل ينسى الهموم ويشفى الجروح .. لكننى الآن مصرة على الخلاص من ذلك الرجل حتى أشعر أننى تحررت من قيدى إليه فلربما أحيا حياة هادئة بعد ذلك ..

وتحدثت مع أمى فى شأن طلاقى ، فأيدت ما نويت فعله وصحبتنى إلى جارنا المستشار صفوت علام حتى نستشيره فيما ينبغى علينا فعله من إجراءات ، فطلب منى قسيمة الزواج وبعض المعلومات وقال بأنه سيتولى الأمر نيابة عنى ..

بعد شهر كنت مطلقة .. فرحت بهذا اللقب الذى حررنى من قيد نبيل الذى لم أعش معه يوماً واحداً يفرح القلب ، لكننى بعد الفرحة الأولى انتابتنى موجة عارمة من الحزن على حياتى الضائعة وابنتى الراحلة .. وصرت أمام الناس هيكلاً فارغاً من الحياة ، لا أشعر لها

بلون ولا مذاق ، أعجب من ضحكاتهم ومرحهم ، جراحى أضحت كالسكاكين تقض مضجعى وتحطم قدرتى على مواصلة الحياة .. وأخذت أسترجع كل ما حدث لى منذ قصتى مع فايز .. كانت ليالى كلها مسرحاً للذكريات الأليمة تعجب من تعمد كل من عرفونى إيقاع الظلم بى .. وأخذت أتهم نفسى بالغباء ، أيجب أن أكون متخابثة حتى أتمكن من الدفاع عن نفسى ، أم أن تمسكى بالفضيلة سلاح يمسكونه ضدى .. حتى زملائى فى العمل يقلبون عيشهم بكل السبل الخفية الممكنة ، أما أنا فأتعفف عن الشبهات ، ورغم ذلك تتخطانى الترقيات وتنحرف عنى كأنى أنا الغشاشة أو المرتشية أو المتساهلة .. إننى أؤمن بأن الدنيا ملأى بما يكفى حاجاتنا لا بما يكفى جشعنا !!

لكنى كذلك غريبة عن كل من يعيشون حولى ، ومن الطبيعى أن الإنسان ابن البيئة التى يعيش فيها . ولهذا فشلت فى أن أكون جزءاً من مجتمعى لأنى لم أحب فنونهم وأخلاقهم ولم أسع إلى تدنياتهم وسفاسفهم :

فدنيانا التصنع والترائى ونحن بها نخادع من يرانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضاً عيانا

ها أنذا أحصد ثمار عذابى وأشواك حياتى طوال السنوات الفائتة .. جراحى تقض مضجعى ولا يشعرون بى .. ويح نفسى كيف أحيا بينهم وهم لا يقدرون على رؤية دمائى أمام أعينهم شاكية نازفة .. ما ذنبى

وما جرمى ؟ وماذا جنت يداى حتى يضيع صباى وشبابى .. تمر الليالى ووسادتى تصغى لتنهداتى .. أيامى متشابهة سقيمة وعمرى ينتظر الميلاد وأنا أهفو إلى الحياة ..

الضحكة أرسمها لهم فوق شفتى لكن قلبى فى مأتم وعويل وأنين .. أين السبيل إلى الحياة .. أين الأحلام .. أين كيانى فى هذا الكون ؟

نسوا أنى امرأة وأودعونى سجنهم ومر قطارى دون أن يتوقف لالتقاطى .. أمسكوا بأيديهم نجوم السماء وبخلوا على بالنظر إليها ، أظلمت شمسى وهم ما زالوا تحت شموسهم يستدفئون .. أشعر أن كل محطة فى حياتى غابة مظلمة موحشة باردة تنعق على أشجارها البوم والغربان .

كيف أشكو لهم وهم أصماء ؟!

لن أقول لهم شيئاً .. لن أستجديهم عطفاً .. فلأتلظى وحدى بالجمر .. فأنا لا أملك حق النجاة ولا الحلم ولا الحياة .. زايل الحظ مكانى منذ تنفست تباشير الصبا .. فانتهت هناك كل الحكايا وأظلم الكون وفنى الضياء !!

أذاقنى الدهر كل رزاياه وجرب فى صنوف البلايا ..

بدأ بالخيانة .. فكن أوقعنى الغدر فى الضيق والهم والوحدة !!

وثنى بالظلم .. فأظلمت حياتى وناحت غربانها :

أما والله إن الظلم لؤم ومازل الظلوم هو الملوم

وثلث بالفراق . . انتزع منى ابنتى حشاشة فؤادى .. ثم والدى الحبيب الذى أعطانى كل ما يقدر عليه من حب ورعاية ولم يضن على بشىء ..

هام الموت فوق رؤوس أحبتى فاجتثها وتمنيته فأهملنى .. لهذا أبغضته كما أبغضت الناس . عرفت جورهم فأبغضتهم وآمنت بأنه إذا عرف الإنسان جور الطبيعة ، احتقر الموت ، وإذا عرف جور المجتمع احتقر الحياة ..

- ٦ -

الأخ عتاد الحياة وذخيرة المستقبل لكنه حين يعدم الحب ينقلب ذخيرة للدمار دون رحمه

قالت لى أمى ذات ليلة :

- لقد اتفقت مع ناظر الزراعة على أن يبحث لى عن مشتر للأرض حتى أشترى لك شقة خاصة بك يا ابنتى ، فهذه الشقة ملك لك ولأخيك ، وأنا خائفة عليك منه وأريد أن أطمئن عليك قبل موتى .

- لا تقولى ذلك يا أمى فليس سواك فى الدنيا .. بارك الله لى فيك .

- الأعمار بيد الله يا نادية والموت علينا حق .

وبالفعل جاء ناظر الزراعة بعد ثلاثة أيام معه رجل من أعيان طنطا ومحام ، وتم عقد البيع .. وسلم المشترى والدتى خمسين ألف جنيه كاملة ..

دخل أخى علينا بعد ساعتين ونحن نعد المال .. كانت أمى قد خبأت عشرة آلاف جنيه فى خزانة ملابسها قبل دخوله تحسباً لطمعه .. رأى المال فذهل مكانه لحظات ثم سألها :

- من أين هذا المال ؟

- هذا المبلغ بأكمله ثمن الأرض .. لقد بعتها .

- وكم يبلغ هذا المال ؟

- أربعون ألف جنيه فقط .

- وأين نصيبى منه ؟

- عشرون ألفاً لأختك عشر ، ولى عشر فقط .

- هات نصيبى إذاً ..

- وماذا ستفعل به ؟

- لا شأن لك بذلك .. أليس مالى .. لو رميته فى البحر ليس من حق أحد أن يسألنى عنه ..

- صدقت ، ولكن لن تأخذ مليماً منا بعد الآن .. انس أن معنا مالاً . لكنى كنت واثقة أنه لن يتركنا وشأننا ، فلم أصدق أبداً وعده بالاكتفاء بما أخذ .. إن الشر يسعى فى تكوينه كالأفعى ، لم أر منه أبداً ما يجعلنى آمن له فلماذا أثق به ؟ وقد صدق فيه ظنى !!

وفى اليوم التالى صحبتنى أمى إلى جارنا المستشار لنخبئ عنده المال ، لكنه نصحنا بأن نشترى عقاراً حتى نأمن أخى .. فهو دائم السفر ولا يأمن على المال فى شقته وأشار علينا بشقة يريد صاحبها أن يبيعها لأنه مهاجر إلى إنجلترا ، واتصل به واتفق على أن نذهب إليه فى الصباح .. قال : إن الشقة معقولة وفى منطقة هادئة فى المعادى .. وأخذنا العنوان

وذهبنا لشقتنا لأمر كان مقدوراً .. فلا مهرب للمرء من أقداره ..

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

خبأت أمى العشرين ألفاً تحت وسادتها ونمنا ونحن ندعو الله أن يقينا غوائل أخى الذى لا يصون العرض ولا يحمى العشيرة .. لكن ما خفنا منه حدث .. وفوجئنا به قرب الفجر فى الغرفة وقد فتح الخزانة وألقى بالملابس على الأرض .. صرخت فيه أمى وهى تظن أنها فى كابوس :

- ماذا دهاك يا ولد .. ماذا تفعل ؟

- أين خبأت المال ؟

- لقد أخذت حقك وليس لك عندى شىء ..

- ماذا تريدين بالمال .. إحدى رجليك فى الدنيا والأخرى على حافة القبر دعينى أستمتع بحياتى أيتها العجوز !!

- وماذا عن أختك أيها العاق ؟

- أختى .. ؟ ما حاجتها للمال ؟ أو ليست موظفة ؟

- وأنت ما حاجتك للمال ، أو لست موظفاً وعندك محل ؟!

- إن لم تعطينى المال سأصور لك هنا قتيلاً ..

- هل أنت مخمور كعادتك أيها الفاسد ؟

- إننى يقظ جداً .. وسوف أحصل على المال رغماً عنكما !!

ثم أخرج من جيبه مسدساً صغيراً هددها به بأن وضعه على ظهرى وقد جذب شعرى إليه بشدة .. فلما رأت أمى هلعى وصراخى انهارت لرؤية المسدس فى يده وأخرجت له المال فأعطته إياه ..

أخذ المال وخرج من الشقة ، وتركنا منهارتين باكيتين لا نملك حتى القدرة على القيام من مكاننا ..

وبعد ساعات أفقنا من الصدمة فذهبنا إلى المستشار وروينا له الفاجعة فأراد أن يبلغ الشرطة لكنى أصررت على الرفض .. أجل ولا تندهش إن قلبى لا يستطيع أن ينسى أنه أخى .. ربما هداه الله يوماً .. أما إذا أوذى بسببى فلن أسامح نفسى أبداً ..

أعطتنى أمى المال الذى خبأته (العشرة آلاف جنيه) وذهبنا من فورنا للبنك وأودعناه فيه بحساب سرى ..

لم يرحمنا هذا الأخ .. لم يرحم أمه ولم يعبأ بكبر سنها وأمومتها له .. ولم يهتم بضعفى وظروفى ووحدتى .. إنه مجمع للرذائل .. لا يعرف معنى الرحمة .. ولا أظن أن الناس فيهم رحماء .. لقد كانت الرحمة موجودة يوم كان الصدق موجوداً . أما بعد اختلال الموازين وانعدام القيم فقد عدم الناس الرحمة وجحدوها حقها فى القلوب .. وأصبح الظالمون – وما أكثرهم – كسالى متبطلين لا عمل لهم إلا التسكع واللجوء إلى من آوت الرحمة إلى قلوبهم يعتصرون خيرهم ويبخلون عليهم بحقوقهم .. حتى تجف دماؤهم وتزهق أرواحهم وتبلى ثيابهم !!

وبعد مدة قصيرة عاودنى الموت زيارته . فماتت أمى لأتذوق مرارة اليتم والوحدة والذل والخوف .. لأبدأ بعد أن أودعتها مرقدها الأخير - وعيونى باكية دماً - عهداً جديداً من المعاناة الحقيقية .. على يدى أخى العزيز !!

أخذت أللم أحزانى منفردة هذه المرة ، لم يعد لى فى الحياة من سند ولا معين ..

وكبلتنى أحزانى عن التفكير فى أمر مستقبلى شهراً تقريباً ، أيامه متشابهة .. وهكذا أيام الحزن .. عافت نفسى الطعام والشراب وعكفت فى غرفتى أقطع الوقت الذى أضحى ليلاً كله بالبكاء والندم الطويل على أيام عمرى الضائعة ، كنت أبحث فى نفسى عن نفسى .. أين ذهبت ؟ أهى مع صباى الذى رحل حزيناً أم مع زواجى الذى انتهى بصورة غريبة .. أم مع ابنتى التى ماتت وتركتنى أعانى الثكل بعدها .. تذكرنى بها كل بسمة أراها على وجه طفل وكل قطعة من ملابسها أراها فى خزانتها ..

ماذا جنيت حتى يحدث لى كل ذلك ؟

لماذا تكيل لى الدنيا الحزن والغدر والفراق والهوان ؟

ماذا يحبون فيها ؟ أيحبون مصائبها أم كدوراتها أم أمراضها وأهوالها وكوارثها ؟

هى الدنيا تقول بملء فيها حذارِ حذار من بطشى وفتكي

وهذا الأخ الفاسد الذى أفسده التدليل .. ماذا أفعل معه ؟

إنه لا يمل من مضايقتى وإهانتى .. يعود كل ليلة مخموراً ويأمرنى بتحضير العشاء له ، ثم يأمرنى بالبحث لى عن سكن آخر لأنه يريد أن يتزوج ويسخر منى لأنى - على حد قوله - فاشلة ولا أصلح لحياة زوجية ولهذا كان الطلاق مصيرى ، أما هو فرجل ناجح ومن حقه أن يعيش حياة طبيعية .. أم سيقضى طوال حياته وحيداً بجوارى .. ؟ وحقيقة لم يكن ما فعله بغريب علىّ فالنذالة جزء أساسى من تركيبته .. لكن كيف أحصل على شقة ولست أملك شيئاً يذكر من حطام الدنيا .. لست أملك إلا عشرة آلاف فى البنك وثلاجة ٨ قدم من زواجى السابق .. أما مصوغاتى فقد أخذها زوجى حتى يطلقنى قبل أن تموت ابنتى ، كما أننى كنت تنازلت له عن حقوقى .. فمن أين لى بالمال ؟

كيف أفر من وجه أخى ؟ إننى أتمنى ألا أراه أبداً حتى لو سكنت بكشك صغير !! وظللت أبحث عن شقة تناسب ما معى من مال دون جدوى !

وطوال ذلك تفنن أخى فى تعذيبى وتجويعى .. فقد كان يأخذ منى راتبى كله لأنه يسمح لى بالسكن معه وهذا المال ضريبة منى لتعطيله عن الزواج !!

رجعت من العمل ذات يوم فمنعنى من دخول الشقة وقال لى من خلف الباب :

- اذهبى إلى حيث كنت فقد سئمت حياتك النكدة .. أف لك ولحزنك الذى لا ينتهى لقد أضعت بهجتى وشبابى .. !!

ذهبت لجارنا المستشار وشكوت له الذل الذى أنا فيه فذهب إليه وأمره بفتح الباب وتمكينى من الدخول وإلا سيطلب الشرطة ، فتح الباب مضطراً أمام خوفه من المستشار وتهديده بالشرطة ، ثم أخذ يضربنى بكل ما أوتى من قوة وظلم وجبروت ، وقطع لى معظم ملابسى ثم ترك لى الشقة وخرج ليقضى سهرته كعادته كل ليلة .. ظللت فى فراشى أتوجع إلى أن عاد .. ومعه امرأة تسليه إلى الصباح ، وسحب ثلاجتى وأدخلها غرفته .. وأخذ يكيل لى السباب والسخرية أمامها ليضحكها ويتمتعا بليلتهما .. آه .. أين أنت أيها الموت لتدركنى مما أنا فيه .. ؟ يا لك من جاف أصم !!

فى الصباح أخذت ما تبقى لى من ملابس وذهبت إلى خالتى وشرحت لها ما أعانيه فقالت لى :

- رحم الله أمك يا نادية ، لقد تركتك لمن لا يرحم ولا يراعى رحماً ولا ذمة !!

- ماذا أفعل يا خالتى ؟

- ليتنى أستطيع مساعدتك يا ابنتى .. إن زوجى صعب العشرة كما تعلمين والشقة غرفتان وصالة .. وليس معى ما أملكه إلا معاشى ..

- سأترك ملابسى فقط عندك يا خالتى حتى أجد مأوى ولو غرفة فوق أى منزل .

- الأمر لله يا ابنتى .. انتظرى للغداء ..

- شكراً يا خالتى ، سأذهب للعمل ..

رويت لزميلتى انشراح ما أعانيه .. فقالت لى : لا تهتمى ، سأعطيك مفتاح شقة والدتى رحمها الله فى السيدة زينب .. إنها مغلقة منذ ماتت .. امكثى فيها إلى أن يفرجها الله ..

- أخاف أن أثقل عليك يا انشراح ..

- عيب يا نادية .. الناس لبعضهم ونحن أصدقاء .. قولى لى : ما قيمة الصداقة إذن ؟

حقاً لم أعد أعرف قيمة أى شىء فى هذه الدنيا .. لم أعد أرى إلا مساوئها من كثرة ما أرتنى وأعيتنى وكالت لى من مصائبها ..

استأذنت قبل انتهاء اليوم مع انشراح وذهبنا إلى شقتها حيث أصرت على أن أتغدى معها ثم ذهبت معى لشقة السيدة .. أرتنى الغرفة التى سأتخذها مكاناً لنومى وقالت لى بأن أخاها سيأتى من الخليج بعد ستة أشهر ليقضى إجازته فيها .. فقلت لها : إننى لابد أن أجد سكناً لى قبل ذلك بإذن الله .

وهكذا رزقنى الله بيد تمتد لى بالعون بعد أمى رحمها الله ...

بعد أن استقرت أحوالى فى تلك الشقة ذهبت لأزور أمـى .. حيـث أخبرتها عن أحوالى وشـكوت لهـا وحـدتى مـن بعـدها وهـوانى علـى الناس ..

بعد الزيارة وأنا راحلة من المقابر التقيت بشيخ يتلو كتـاب الله أمـام مقبرة .. جلست أستمع له .. كم أطربنـى صـوته ولـذت لى تلاوتـه .. أنهى قراءته والتفت لى باسماً ثم سألنى :

- ما خطبك يا ابنتى .. لماذا تجلسين بين المقابر والليل قد أوشـك أن يسدل أستاره على الكون ؟!

- حياتى كلها ليل يا أبتاه .. لست أخاف الليل وهو يحاصرنى دومـاً منذ أن تفتحت مداركى فى هذه الحياة ..

الليل سكن وهدوء لمن يجد فيه الدفء والأمان والراحة .. أما أنا فلا أجد فيه إلا الحزن والخوف والذكريات المؤلمة تزورنـى أشـباح أحبـابى وأجالسهم طوال الليل .. أما نهارى فهو ليل كذلك .. لأن عينـاى قـد عميتا بالدموع المتتالية فلم تعد تبصر ضوءاً ولم تعد تأبه لضوضاء الناس أذناى ..

- رفقاً بنفسك يا ابنتى .. لقد أيقظت أوجـاع النـائمين هنـا بعـد أن قضى عليها الموت باقتناص أرواحهم ..

- يا ليتنى منهم أيها الشيخ الجليل .. إن الموت نعمة كبيرة لا يـدرك

قيمتها إلا أمثالى من التائهين الضائعين فى بحر الحياة الهائج المتلاطم .. !!

– ممن أنت يا ابنتى ؟

– من أهل الدنيا .. أجل ما زلت منهم يا سيدى وليت الموت يتذكرنى !!

– هلمى معى يا ابنتى .. إن لى ابنه فى مثل عمرك .. فلا تخشى شيئاً .. لست أسكن بمفردى !

– لا أريد أن أثقل عليك أيها الشيخ .

– كلا يا ابنتى .. لقد ساقتك الأقدار إلى طريقى ولن أفرط فيك .. أشعر أننا التقينا بترتيب السماء لأنك فى حاجة لمن ينتشلك من الجحيم !!

-٧-

الدنيا إلى زوال

ليتنى لم أولد يا سيدى .. إننى فى عذاب منذ عرفت معنى الحياة .. عرفتها أنفاساً معدودة كتب على أن أكملها ، لكنى لم أشعر يوماً لها بحلاوة أو طلاوة ..

أكره نفسى التى بين جنبى لأنها غريبة عن المجتمع بأسره ، أكره الناس لأنهم مجموعة من الوحوش ، كل ما يعنيهم فى الحياة أن يأكل بعضهم البعض ، ولذا فهم يعتبروننى بشخصيتى البسيطة وجبة لا يمكن التنازل عنها ، كل من يتعامل معى يطمع فى فأنا أكره المال الذى أطعمهم فى وجعلهم لا يرون فى إلا مغنماً ومكسباً .. وكما كرهت كل ما فى الحياة كرهت الموت .. كرهته مرتين .. مرة حين تمنيته فلم يجبنى ، ومرة حين اختطف منى أحبابى الواحد تلو الآخر .. اختطف ابنتى الصغيرة وقد كانت أملى الوحيد فى الحياة ، ثم اختطف والدى وكان السند والمرفأ الذى يحمينى من غدرات الأيام .. ثم اختطف أمى وهى الحضن الدافئ والسكن الوديع لقلبى المكدود المسكين .. كانت الرحمة والشفقة والإحسان .. فلما رحلت صحبت معها الرحمة والشفقة والإحسان .. فعدت لا أرى فى الدنيا إلا الظلم والقسوة والأنانية والبخل .. البخل فى كل شىء فى المال والمشاعر والحنان ..

رحل معها كل أمل لى فى هذه الدنيا .. فلماذا أبقى يا سيدى .. قل لى بربك ما فائدة مجيئى إلى هذه الدنيا ألأنال قسطاً وافراً من العذاب ؟ بل ما فائدة الدنيا بأسرها ؟ ظلمات بعضها فوق بعض .. لا أكاد أرى فيها بصيص نور أو بارقة أمل .. كم أود لو تعفو الدنيا عنى وتعتقنى من أسرها .. إنها فى نظرى سجن كبير ودار عقاب أليم .. لهذا أتمنى الموت وأتوق إلى الثرى .. لأنعم فيه بالراحة بعد العذاب والدعة بعد الأهوال والخطوب ..

إن سئمت الحياة فارجع إلى ... الأرض تنم آمناً من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأم ... التى خلفتك للأتعاب
لا تخف فالممات ليس بماح ... منك إلا ما تشتكى من عذاب
كل ميت باق وإن خالف العنوان ... ما نص فى غصون الكتاب
وحياة المرء اضطراب فإن مات ... فقد عاد سالماً للتراب !!

نهض الشيخ واقفاً واتجه إلى ركن قريب من أركان حديقته الغناء .. كان يسكن فى أطراف المدينة .. فى منطقة لم تدمرها يد العمران بعد .. أو قل يد الإنسان .. عاد إلى وفى يده زهرة صغيرة .. وقال لى وعيناه مثبتتان فى عيناى ..

- أرأيت هذه الزهرة يا ابنتى .. إنها كما ترين صغيرة .. لكنى قطفتها ومنعتها الحياة .. منعتها رى الأرض ودفء الشمس وهفهفة النسيم .

– لماذا اقتطفتها إذاً يا أبتاه ؟ أما كان الأحرى بك أن تدعها تكمل مسيرتها لعلها تنمو فتريح عانياً من أحزانه أو تنسى مريضاً بعض أوجاعه ؟!

– هكذا أنت يا ابنتى .. لم يحن أوانك بعد يا زهرتى .. مازلت صغيرة .. إن هذه الزهرة الصغيرة لم تتمن يوماً الموت لكنه جاءها حين حان أجلها ، ولو تمنته ما نالته .. إن الأقدار تأبى أن تعطى الأحياء كل ما يشاءون .. أما الظالمون فى هذه الحياة فهم يأخذون منها ما يحلو لهم .. كذاك الشوك الذى لا ينفع بل يضر .. يدمى الأيادى الغضة ويهتك حرمة الأزهار .. فما فائدته يا ابنتى ؟ لا نعلم .. لكنه خلق لحكمة يعلمها خالق الشوك والورد خالق الخير والشر ، خالق الحق والباطل .. وفى النهاية .. حين يحين الحين ويأتى أوان البين .. ويرتفع صوت الحق وتنتهى دولة الباطل .. إنها حكمة الله وإرادته فى هذه الدار الفانية .. التى تحمل فى أحشائها بذور الحياة والموت معاً جنباً إلى جنب ..

كل شيء فى الدنيا يا ابنتى إلى زوال .. لكن الزوال لا يأتى إلا بعد الحياة .. الشمس تأتينا كل يوم بإشراق ثم تأفل عند الغروب ...

والغيث ينهمر على الأجادب فإذا ما رواها أمسكت ما بقى فيها من الماء .. وينمو الزرع فإذا ما مرت الأيام تباعاً أصبح هشيماً تذروه الرياح : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ

وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾

[الحديد : ٢٠]

– أبعد عذاب الدنيا عذاب فى الآخرة أيها الشيخ ؟ ألا يكفى شقاء الدنيا ؟

– الدنيا يا ابنتى دار من لا دار له .. ولها يعمل من لا عقل له ..

– لا أفهم شيئاً يا أبتاه ..

– الآن يكفيك ما قلناه يا ابنتى فقد حان أوان صلاة العشاء .. لكن لا تذهبى إلى دارك الليلة .. فنحن هنا بمنأى عن العمران وأخاف عليك يا زهرتى من غدر الأشقياء .. وها هى ابنتى زهراء قد أعدت العشاء ..

-٨-

أسهرتني الحادثات وقد نام حتى هاتف الشجر
والدجى يخطو على مهل خطو ذى عز وذى خفر
فيه شخص اليأس عانقني كحبيب آب من سفر

مرت بى الأيام بعد تلك الليلة الساكنة وئيدة .. لا تضطرب ولا تزول ... أجل أيقنت أننى لابد أن أفنى أيامى حتى يوافينى أجلى .. أيقنت أننى كديدان الأرض .. لها فوائد لا نعلمها .. فأنا مثلها ربما لى فائدة فى الحياة لا أعلمها .. يبقينى الخالق الباقى من أجلها ..

يقولون : إن الله خالق كل شىء .. وأنا بحمد الله مؤمنة بربى ، فلا بد لكل مخلوق من خالق .. حتى أوجاعى وآلامى خلقها الله معى وأنا فى أحشاء أمى أزحف نحو كآبة الدنيا .. فلماذا خلقنى الله ؟

هذا التراب الذى جئنا منه فيه سر الخليقة .. أجل .. لا تحسبن أن التراب شىء تافه أو أن الطين حقير .. إنه أنت وأنا وملايين البشر .. ليس كتلة من السكون والجمود ، بل هو عمار هذه الدنيا .. إن كل شىء فى كوننا هذا له فائدة .. له قيمة .. إلاى !!

ما فائدتى وما قيمتى .. إذا كانت كل الحياة لا تعنينى ؟!

آباؤنا الأقدمون .. عاشوا وعاثوا ومشوا وجاعوا وطعموا .. ثم ماتوا وفنوا وهلكوا ؟ ما قيمتك أيها الإنسان ؟ جسدك يفنى ويصبح

طعاماً للدود بعد ساعات من دفنك بعد جبروتك تصبح رمة بالية عفنة ويأنف منها أحباؤك ومعجبوك الذين كانوا متيمين بك قبل مماتك .. أللدود خُلقتَ .. أللفناء كنت .. فلماذا أيها السفيه المغرور بنفسه .. انتبه .. قبل أن يغرقك الطوفان ∴ لا تغتر بمالك أو جمالك .. فإنما أنت تراب .. وبين جنبيك يرقد الفناء منتظراً اللحظة المناسبة ، تلك اللحظة التى يفتح فيها باب القبر .. ليلتهمك ويقضى على فتوتك ورعونتك .. إن شبابك الذى يطغيك ذاهب نحو الزوال تارك مكانه شيخوخة محزنة .. وحياتك الساطعة الباهرة فى رحلة ارتحال .. وها هو الموت يتهيأ لك .. يتجهز للقائك ليسجن جسدك الحقير بين أطباق الثرى وروحك الخبيثة فى أغلال العذاب .. أيها الفتى القوى المغبون .. أفق .. إنما هى لحظات وينتهى كل شيء .. وستنظر بعد غفلاتك لترى الموت .. ينظر إليك بوجهه المرعب ويكشر لك عن أنيابه .. لا تفرح كثيراً .. فالقبر يفتح لك ذراعيه .. لا داعى لمزيد من الظلم والتجبر .. أيها السادة المغرورون .. هبوا من سباتكم .. فإن غداً لناظره قريب !!

يبدو أنكم نفرتم من كلامى ووعيدى .. وأوشكتم أن تصرخوا فى وجهى : ما بالك أيتها المحزونة أبداً .. ؟ ما بالك تخوفينا من الموت ؟ دعينا نستمتع بحياتنا واعكفى وحدك على أحزانك فأنت هكذا دائماً يا صاحبة الأحزان والمبادئ والآلام والذكريات ..

كفى عن تمثيل دور الواعظة .. وانظرى إلى نفسك .. هل تجدين

للحياة طعماً منذ سنوات ؟ لا .. أتعرفين لماذا ؟ لأنك تعشقين التفكير .. أريحى عقلك وضميرك وابحثى عن متعتك .. ربما تكون أمام عينيك وأنت عمياء عنها .. هذه هى الحياة .. متع ولذات وصخب وضحك ، كفى عن عويلك .. أصبحت كرياح السموم .. ومتعى نفسك بمتع الحياة قبل أن تتركك الحياة ويرديك الموت .. مالك وللموت .. دعيه وشأنه .. فليأت حين يحلو له .. ساعة يأتى سنكون شبعنا من المتع واكتفينا من اللهث وراءها .. وحينئذ نرتاح من الجرى المتواصل ونخلد فى راحة أبدية .. وربما نكون مع الحور كما حكت لنا الأمهات فى الصغر .. إن الله رحيم .. غفور .. ما يجنى الله من تعذيبنا أولسنا خلقه ؟ إنه يحبنا .. يستحيل أن يعذبنا .. هل من يحب يعذب أحبته .. ؟ إنك مجنونة مخبولة حمقاء ...

ظلت الهواجس تنتابنى وقتاً طويلاً .. تسهرنى وتمنع عنى النوم .. أجل .. إننى شقية تعيسة .. وجبانة أيضاً .. إذا كنت أبغض الحياة وأتمنى الموت فلماذا لا أسعى أنا إليه إذا كان هو لا يريد أن يأتينى .. ؟ لكنى لا أجرؤ على قتل نفسى .. أعرف أن هذا حرام فى كل الأديان .. إننى كاذبة .. ليس هذا السبب فى خوفى من قتل نفسى .. ليس للدين سيطرة حتى أخاف الإقدام على الانتحار من أجله ، لكنى جبانة .. أجل .. إننى أعترف !! ذهبت مرة أخرى إلى الشيخ .. كان لقاؤه يريح قلبى وينعشه ويبعث الأمل فى صدرى ، ولم يكن الأمل يراودنى إلا كل حين ومين .. كان الأمل بالنسبة لى خداع ووهم ، كان كما يقال :

أطياف وبريق وسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

كان منزله نائياً فسرت مسافة طويلة بعد أن تركت السيارة الأجرة لكنى فى النهاية وصلت وقت أذان الظهر .. وجدت الشيخ يصلى فى حديقته .. فى تعريشة خاصة له جعلها لصلاته وتسبيحه ، كان الورد يحيط به من كل مكان وأقفاص الطيور منتشرة فى أرجاء الحديقة ، فأحسست أن رائحة الورود وتغريد الطيور ينتشلنى من عالمى المظلم إلى قطعة من الجنة فى الأرض .. كان ذلك الجمال الخلاب المريح ينطق بالبهجة والأنس ويملأ النفس حبوراً وراحة .. أستطيع أن أؤكد لك وأنا مليئة بالثقة أن ذلك اليوم كان بمثابة ميلاد جديد لى .. شعرت أن فى الحياة أموراً قد تعطينا بعض السعادة فلم أبخل على نفسى بها .. لقد تعبت كثيراً ويبدو أن جو المدينة الخانق وصخبها وطباع أهلها قد زاد من ألمى وشعورى بالتعاسة .. لهذه أثار ذلك الجو البديع بصيص نور فى قلبى وذكرنى بالله خالقى .. وطالما غفلت عنه .. طالما عشت عابثة لاهية لا أصلى ولا أعرف معنى كونى مسلمة لله مؤمنة به ..

يقولون : إن هذه الطيور تسبح .. فما بالى أنا لا أعرف التسبيح ؟! أخرجنى ترحيب الشيخ من شرودى .. ووجدت وجهه المضىء قد غزته ابتسامة عريضة حانية تدعو للأمن والسلام ..

قال لى وسعادته بمقدمى تفوح من كلامه الرقيق :

- طالت غيبتك يا ابنتى .. لقد قلقت عليك .. خفت أن تلهيك الدنيا بعيداً عن رحابنا .

- كيف لا آتيك يا سيدى ولقائى بك يؤنس وحشتى ويطفئ لوعتى ؟!

- اجلسى يا نادية حتى آتيك بشراب مثلج يهدئ من قيظ الجو ..

لفت انتباهى أن ابنته غير موجودة .. فلما حضر بادرته قائلة :

- أين زهراء يا سيدى ؟

- إيه .. ! لقد سافرت يا ابنتى .. سافرت لزوجها فى بلد الحبيب ﷺ .

- عليه الصلاة والسلام .. لم أكن أدرى يا أبتاه أنها متزوجة ..

- إنها حال الدنيا يا نادية لقاء وفراق ..

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا إلا بقية دمع فى مآقينا
كنا قلادة جيد الدهر فانفطرت وفى يمين العلا كنا رياحينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا جاه ولا نسب ولا صديق ولا خل يواسينا

- أرى الحزن فى حديثك يا أبتاه ..

- الحزن وسادتى يا ابنتى .. لكنى أتركها فور قيامى من سباتى ، الحياة تمر مهما حدث بأفراحها وأحزانها ..

لم أكن أبداً وحيداً كما ترينى الآن .. كنت ملء البصر والسمع .. كنت وزيراً يا ابنتى .. من أولئك الوزراء الذين اجتالتهم يد الظلم

لأنهم استقاموا على منهج الحق وكان لى ثلاثة بنون .. أخذتهم الحروب فيمن أخذت وأبت أن تعيدهم إلى .. مات اثنان ورجع الثالث لكن الحرب وأهوالها أحدثت لوثة فى عقله .. وما لبث أن لحق بأخويه إلى دار الحق .. وزوجتى لحقت بهم بعد حين .. إنها صاحبة القبر الذى كتب القدر أن ألقاك أمامه .. أما ابنتى زهراء فقد كانت الصغرى .. تزوجت من رجل يخشى الله .. أجل .. ولأنه كان مثلى يخشى الله ولا يخشى فى الحق لومة لائم رحل من البلاد وتركها لمن يحكمون فيها برشاويهم وحيلهم وأكاذيبهم .. لكنى لم أستسلم لأحزانى كما قلت يا نادية .. بل فررت منها لمنزلى هذا .. أزرع حديقته وأستمع لأحاديث طيوره .. وأناجى الله رب العالمين .

- كيف صبرت على كل ذلك يا أبتاه ؟! إنك كالجبال الشامخات !!

- لست كالجبال يا ابنتى .. لكنى مؤمن بالله .. وبقدر الله خيره وشره .. ماذا بوسعى أن أفعل غير الصبر والرضا ؟ إننا لا نملك فى أنفسنا شيئاً .. إننا ملك لخالقنا .. وكل ما أتمناه هو رضى الله .. وسعادة الآخرة ..

- أستئذنك يا سيدى فى الانصراف حتى لا يطوينى الليل بظلامه ..

- اسمعى يا نادية .. أنت كابنتى زهراء .. أنت وحيدة وأنا كما ترين أناجى السكون .. تعالى اسكنى فى دارى كابنتى .. إننى رجل جاوز السبعين فلا يخشى طيشه ، كما أن منزلى له غرفتان فارغتان

فى العلية .. اسكنى بهما حتى آنس بك وتأنسى بى .. ما رأيك ؟

- هذا كرم عظيم منك يا سيدى ..

- الله هو أكرم الأكرمين يا ابنتى .. فكرى فى الأمـر .. وعـودى إلى بعد أن تتدبرى أمورك .

- أعدك بالعودة قريباً يا أبتاه .. وشكراً لك .. أيها الكريم السخى .

-٩-

يا عين صار الدمع فيك سجية تبكين فى فرح وفى أحزان

سهرت ليلتى أقلب الأمر فى خاطرى .. أأذهب للحياة فى تلك القطعة من الفردوس ، أم أبقى فى شقة السيدة .. ؟ فوجدت أن شقة السيدة ما هى إلا عارية ، والعارية حتماً ذاهبة إلى صاحبها .. أما الشقة الصغيرة التى يعدنى بها الشيخ فى علية منزله ستكون لى .. كم أتوق إلى مكان أملكه ولو حجرة واحدة .. تطمئننى جدرانها .. لماذا أحمل هم المستقبل .. فلأعش اليوم فى مكان أحبه عسى أن يكون ذلك بداية لحياة جديدة تشرق شمسها بالأمل والسعادة .. أيتها الشمس لعلى لا أراك بعد اليوم .. فدعينى أتمتع بشعاعك الخلاب وبريقك الجذاب ..

إن الجميع يبحثون عن السعادة والاطمئنان .. ولكن قليلاً منهم من اهتدى إلى ذلك ووفق لنيلها ..

وهكذا عقدت عزمى على أن أعيش فى راحة بعض الوقت .. فذهبت إلى زميلتى انشراح وأعطيتها مفتاح شقة والدتها .. تلك التى أحسنت إلى وهى حبيسة الموت .. وأخبرتها أننى عثرت على شقة صغيرة فى أقصى القاهرة ولم أعطها العنوان .. أردت أن أخلو بنفسى وأفر من الخلق .. أفر إلى الخالق .. وسرعان ما كنت أحمل حقيبة ملابسى الصغيرة وحاجاتى الخاصة وملابس ابنتى – رحمها الله – تلك الملابس التى كانت سلواناً لى .. أشم فيها رائحتها الطاهرة لأستروح

نسمات تصبرنى .. فقد كانت الذكرى تعاودنى الحين بعد الحين ..

ووجدنى الشيخ الحبيب إلى قلبى أمامه .. فضحك ضحكة صافية من قلب صاف وقال :

- إذن فقد عدت لتؤنسينى يا ابنتى .. الحمد لله .. ذهبت زهراء وجاءت نادية .. إنه لطف التدبير ورحمة الله التى لا يراها إلا المؤمنون .. الحمد لله ..

قضيت بالطبع أياماً أنظف المكان وأهيئه وساعدنى الشيخ كثيراً ، وأحضر لى فى غرفتى قفصاً به عصفوران أسماهما (رحمة ، وبشرى) كانا زوجين .. كما نقل لى بعض بذور الريحان والفل والياسمين فى أصص صغيرة إلى حيث يمتد بصرى بجانب الغرفتين .. وزرع اللبلاب على نافذة الحجرة المطلة على الحديقة .. وقال لى :

- لابد أن تعيش زهرتى الجديدة فى مكان يليق بها .. فالزهور لا تنبت إلا فى الجنان !!

لم أملك أمام حنانه الأبوى المنهمر إلا البكاء .. ثم كببت على يده ألثمها فأخذ يمسح على شعرى بيديه وهو يقول : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] .

أرأيت يا صديقى كيف ضحكت لى الأيام وأبدلتنى أباً بدلاً من أبى وبيتاً خيراً من بيتى الأول .. لقد صالحتنى الدنيا وندمت على جرائمها

التى ارتكبتها فى حقى .. لكنى رغم حبورى وأمانى بعد حزنى وخوفى كنت قلقة .. أجل .. كنت أنتظر غدر الأيام فما ألفت صدق نواياها ولا صفو دخيلتها ...

ولقد تبينت الأمور بغيرها وأتى علىّ النقض والإبرام
فإذا السكون تحرك وإذا الخمود تلهب وإذا السكوت كلام
فالنور لو بينت أمرك ظلمة والبدء لو فكرت فيه ختام

كنت أذهب إلى العمل وأعود قبيل المغرب فالمسافة جد بعيدة بين حى المقطم وبين وسط البلد حيث مصلحة تحقيق الأدلة الجنائية .. كأن القدر مصر على أن يقحمنى فى الهموم أينما حللت .. إنها إرادة الله تلك التى جعلتنى أنا كما خلقت بشخصيتى البسيطة الجاهلة بلؤم النفوس ، الحريصة على التمسك بالمبادئ والخير رغم أننى أحيا فى غابة .

وبعد مدة من إقامتى فى منزلى الرحب الجديد .. اعتدت على نظام أراح نفسى كثيراً وأنسانى بعضاً من همومى السابقة حيث شغلنى الشيخ الحبيب بشيئين الأول : معرفة نفسى .. لأعرف خالقها .

والثانى : تزويد معارفى بالقراءة النافعة فى العلوم الإنسانية .

جلس معى ذات ليلة فى الحديقة يبادلنى الحديث .. قال لى وقلقه باد فى عينيه :

– ما بالك يا نادية .. ؟ أشعر بالقلق عليك تبدين على غير ما يرام ..

- زارنى أخى اليوم فى العمل .. كان شاحباً وهزيلاً .. أشعر أنه كبر عشر سنوات وحين تكلم معى عرفت السبب .. إنه مدمن .. لا يترك الخمر .. بل يتعاطى الحشيش إننى خائفة عليه جداً يا أبتى .. هل قصرت فى حقه ببعدى عنه ؟

- لا تلومى نفسك على شىء يا ابنتى .. لقد طردك وأهانك ولم يحافظ عليك بل ألقى بك فى الطريق .. ماذا كان يريد منك ؟

- يريد مالاً يا أبتى .. لكنى قلت له : إننى لا أملك أى شىء .. رغم أننى أملك عشرة آلاف جنيه فى البنك .. إننى أنانية يا أبتى .

- قولى لى يا ابنتى : ماذا فعل فيما أخذه منك ومن والدتك قسراً قبل ذلك ؟ لقد أضاعه على الحرام .. إنك إذا أعطيتيه قرشاً سيصرفه على الحرام كذلك .. حرام عليك يا ابنتى .. ثم إن ذلك المال سندك بعد الله فى الحياة .. ليس لك عائلة أو زوج أو ميراث .. حتى راتبك يكفيك بالكاد ، فكيف تعطين المال لأخيك ليضيعه فى الحرام وتعرضين نفسك للتسول بعد ذلك ؟ إن الله أمرنا بالحكمة فى إنفاق المال ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ [النساء : ٥] .

- صدقت يا سيدى .. ولكن كيف أتركه ضائعًا هكذا ؟

- ادعى له بالهداية يا نادية .. لا تملكين له شيئًا آخر .. لقد أعان الشيطان على نفسه الأمارة بالسوء .. فليهده الله ..

- اسمعى يا نادية : لدينا زائر سيأتينا غدًا .. صديق قديم لى .. يرغب فى التعرف عليك ..

- من هو يا أبتاه ؟

- إنه طبيب نفسى .. الدكتور سعيد عثمان .. رجل فى قمة الأدب والعلم .. لكن حظه عاثر : زوجته متمردة دائماً عليه وتقلب صفوه دائماً كدراً ، وصدق من قال : قد يتزوج الشاب فيعيش مع امرأة بنفس المبلغ ، ولكنه لن يعيش أبداً بنفس الهدوء !!

- أشعر أن الزواج سجن كبير يا أبتاه .. !! ضحك ثم قال لى :

- كلا يا ابنتى .. إن الزواج أخذ وعطاء ، ورحمة ومودة ، وشركة فى السراء والضراء ، ولكن هناك أمور يغفلها الزوجان تجعل الزواج جحيماً أو سجناً كما تشعرين !!

- وما هى هذه الأمور يا أبتى .. ؟

- إنها مجموعة نصائح قدمها أحد الفلاسفة هدية لزوجين .. قال لهما : لا تغضبا معاً فى وقت واحد ، لا تتكلما بحق بعضكما ؛ لا على انفراد ولا فى المجتمع أمام الناس ، لا ترفعا صوتيكما عالياً ما لم يكن فى المنزل حريق ، ليتعود أحدكما أن يخضع لإرادة الآخر فى أغلب الأحيان . وليكن إنكار الذات هدف كل منكما اليومى ، لا تجعلا خطأ سابقاً ارتكبه أحدكما موضوعاً للتعيير والتعنيف ، أهملا العالم كافة ولا

يهمل أحدكما الآخر ، لا تدعا يوماً يمر بدون أن يسمع أحدكما الآخر عبارات الود والمحبة للتذكر ، لا يقدم أحدكما عبارة انتقاد على حساب الآخر ، لا تدعا ساعات الملتقى تمر دون مودة أو ترحيب حار ، لا تدعا الشمس تغرب على أى غيظ أو حزن أو غضب حدث بينكما .

هذه هى نصائحه يا ابنتى .. لكن زواجك لم يكن يجدى معه شىء من هذا .. لقد تزوجت بنية أكيدة فى الاستقرار والعطاء والبذل والصبر على الأزمات .. لكنه تزوجك لأهداف حقيرة خسيسة .. انسى كل شىء يا ابنتى وافعلى مثلى .. نسيت كل همومى فى العبادة والقراءة ..

أنا من بدّل بالكتب الصحابا لم أجد وفياً إلا الكتابا
صاحب إن عبته أو لم تعب ليس بالواجد للصاحب عابا
كلما أخلقته جددنى وكسانى من حُلى الفضل ثيابا

- ١٠ -

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر :٥٣] .

انتشلنى الله من ضياعى .. أعادنى إليه بعد سنوات من الضلال .. ألبس السافر الذى يظهر مفاتنى وأتعمد إغراء الشباب بجسدى ، كل ذلك كنت أفعله وأقول نيتى حسنة .. إننى أتمتع بشبابى .. كنت أصلى فى الأزمات الشديدة فإذا ذكرتنى أمى بأهمية الصلاة تشاغلت بأمورى وتكاسلت ، لكن إقامتى مع ذلك الشيخ الصالح أرجعتنى لله خالقى .. أشعرنى بقيمة ذكرى لله ووجودى فى المصلى أصلى وأسبح .. كنت حين أسجد .. أحمد الله من كل ذرة فى كيانى على رجوعى إليه .. لا يشعر بقسوة البعد عن الله إلا من ذاق القرب منه .. كان شيخى يقول لى : هيا يا ابنتى ادخلى باب المناجاة .. فمن ذاق عرف ومن عرف اغترف !!

وسألته ذات ضحى :

- سيدى .. هل يتعذب المحب فى ساحة القدس كما يتعذب المحب فوق أرضنا ؟

لقد كال لى الحب خداعاً وغدراً وقسوة وصفعات .. تعذبت كثيراً

من استبداده ، أشعل الوجد فى صدرى وشب حريقه فى قلبى ، ثم زادنى اشتعالاً وتركنى أحترق وضحك من دمعى وعذابى .. إننى أمامك الحطام يا سيدى .. أف لذلك الحب .. ذاك المخلوق المدمر !!

- ابنتى .. الحب جنة الله فى أرواح عباده المخلصين .. حتى ترين ثمرات الحب التى تنشدينها وحتى التى لم تعرفيها ولم يتذوقها من قبل وجدانك الغض : ادخلى أولاً ساحة القدس .. خلى نفسك فى أرض الأحزان وارحلى إليه ، بعدها ستتغير جذورك وتغدو سحب حياتك من الحمرة إلى اللون الأزرق المبهج لقد عشت عذاباً وعواصفاً لأنك نأيت عن منبع الراحة والروح والريحان ، ابتعدت عن الأمان والنسائم والبهجة .. هيا يا ابنتى إنه يناديك ..

إذا وعد وفى .. وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء .. لا يبالى كم أعطى ولمن أعطى .. لا يضيع من لاذ به والتجأ .. هو الكريم مطلق الكرم .. هو العليم مطلق العلم .. هو الحسيب الكافى .. من كان له كان حسبه .

واستمعى معى إلى دعوة السيد المسيح عليه السلام للحائرين فى دنيا المتاهة والضلال : أحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ..

طوبى للرحماء .. طوبى للأتقياء .. طوبى للودعاء .. طوبى للحزانى لا تهتموا بما تأكلون ولا بما تشربون .. ولا بما تلبسون ..

انظروا إلى طيور السماء .. إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع فى مخازن .. وأبوكم السماوى يطعمها .. ألستم أنتم أجدر منها ؟!

ليس كل من يقول يارب يدخل ملكوت السموات بل من يحقق إرادة الأب الذى فى السموات .

- وهل نحن نصارى يا سيدى حتى نتبع كلمات السيد المسيح ؟

- إنه نبينا كما أن جميع الأنبياء لنا جميعاً معشر البشر ، فما نافى شريعة نبينا محمد ﷺ لا نلقى له بالاً .. كلهم رسل الله وأنبياؤه جاءوا بكلمة (لا إله إلا الله) . فإن حققتى هذه الكلمة فى قلبك وروحك وعقلك وجسدك أفلحت ونجوت ..

- تجول فى صدرى بعض الأسئلة أخجل من إخراجها كلمات .

- قولى ما يحيرك يا نادية .. بداية النور كلمات حائرة ..

- قل لى يا سيدى : من هو الله ؟

- هو المريد الفعال وليس فى الكون من أمر أو حدث أو قدر أو تدبير إلا هو مظهر إرادته سبحانه .. ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧] . إن العقل قادر من غير تعليم ولا إرشاد على إدراك وجود الله ، بآثاره فى مخلوقاته ، وإقامة الأدلة الصادقة على ذلك .

إن الإنسان قادر بعقله على إدراك أسس الفضائل وأصول الأخلاق العملية والاجتماعية والتحلى بها وإخضاع الشهوات الجسدية لحكم العقل من غير إهمال لحق الجسد أو تفريط فيه .

سأروى لك حكاية صغيرة ، حكاية رجل يدعى (حى بن يقظان) ألقى به وهو طفل رضيع فى جزيرة خالية من الناس فحنت ظبية فقدت وليدها عليه فأرضعته وتعهدته حتى أيفع وتعلم أصوات الحيوانات وتمرس حياتهم ، وفجأة ماتت الظبية .. وتعجب من سكونها بعد حركتها .

- وهنا ستتضح لك رويداً رويداً أعجوبة الموت الذى تحيرك .

لقد شق طفيل عن قلب الظبية فلم يجد فيه آفة .. فقال فى نفسه : إن الذى كان هنا فى القلب وارتحل عنه هو الذى أفقد الظبية حياتها .. فأدرك أن الظبية - فى الحقيقة - هى ذلك الشىء المرتحل وأن جسدها ما هو إلا آلة .. فلما رأى إنتان الجسد تيقن من صدق خواطره فدفن الجسد وواراه التراب .. وهكذا نحن يا ابنتى .. أرواحنا سرنا المكنون ولا يعلم سر ذلك السر إلا خالقه ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وكبر حى بن يقظان وكبر معه تأمله فى الطبيعة والكائنات من حوله .. فنمت معرفته وزادت حكمته ، وأيقن أن خالق كل ذلك خالق

واحد حكيم مدبر ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

[النحل : ٣-٥]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

[الروم : ٢٧]

ولكن أخبرينى أيتها الحائرة .. هل شككت يوماً فى أن الله هو الخالق الحكيم ؟!

- مطلقاً يا أبتى .. لكنى كنت أتعجب من تصاريف الأقدار .. وحظى العاثر !!

- سلمى أمرك لمن بيده الأمر يا ابنتى .. من رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط .. لم تسألينى عن زائرنا الذى ألغى موعده ولم يأت ..

- نسيت يا أبتاه .. لماذا لم يأتنا ليلة واعدك ؟

- كان ابنه مريضاً يا نادية .. لكنه سيأتى الليلة .. بإذن الله .

- ولكن لى سؤال آخر يا أبتى .. كيف يشكر الإنسان ربه فى وسط الكم الهائل من الابتلاءات ؟

- لله حكمة فى خلقه يا ابنتى .. ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢١٤] . ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

وإذا كان المرء فى حياته ابتلاء أو اثنان أو ثلاثة فإن له فى حياته الكثير من النعم ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

كل نعمة لديك وراءها منعم .. كلها من خلق الله ، وعفو الله ورحمته هما اللذان يسعان الإنسان المؤمن إذا لم يقم بحق المعرفة أو بواجب الشكر قياماً كاملاً .

إن جهل الإنسان بخالقه يا نادية ينتج عنه الكفر .. ولذلك لا يرى نعم الله عليه ولا ينسبها لله إذا رآها بل ينسبها لأى شىء مهما كان تافهاً وباطلاً : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِٱلْأَخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

[الزمر :٤٥]

- كلامك مقنع يا أبتى .. يزرع النور بأعماقى .

- لأن الخير موجود بداخلك قبل أن أتكلم يا ابنتى لكن الدنيا والشيطان طمسا بصيرتك .. ثم إنك لم تتلق منذ صغرك التربية الإسلامية الصحيحة .. تلك التربية التى تصلك بالله وتعرفك بحبيبه صلى الله عليه وسلم .

- وعندى قصة يحكيها أحد الصالحين عن نفسه تقوى إيمانك أكثر بما أقول ، يقول رحمه الله : (نزلت بى شدة وأكثرت الدعاء أطلب الفرج والراحة وتأخرت الإجابة فانزعجت نفسى وقلقت ، فصحت بنفسى : ويلك ، تأملى أمرك ، أمملوكة أنت أم حرة مالكة ؟ أمديرة أنت أم مديرة ؟

أما علمت أن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، فإذا طلبت أغراضك ولم تصبرى على ما ينافى مرادك فأين الابتلاء ؟

ثم إنك مملوكة ، والمملوك العاقل يطالب نفسه بأداء حق مالكه ، ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى . فسكنت نفسى بعدما تدبرت ثم إنك يا نفسى قد استبطأت الإجابة وقد سددت طريقها بالمعاصى فلو قد فتحت الطريق بالطاعة لأسرعت إليك الإجابة .

والله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] . ثم إنك تطلبين ما لا تعلمين عاقبته وربما كان فيه ضررك فمثلك كطفل محموم يطلب الحلوى ، وأبوه يمنعه خشية عليه من الهلاك ، فالمدبر لك يا نفس أعلم بالصالح لك .. ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

واعلمى أن هذا المطوب ينقص من أجرك ويحط من مرتبتك عند الله فالأولى أن تطلبى ما يصلح آخرتك .

أفهمت مرادى كله يا ابنتى ؟

واسمعى كذلك حديث النبى ﷺ : « **إذا أحب الله عبداً قال للملائكة إذا دعا : أخروا حاجة عبدى فإنى أحب أن أسمع صوته** » .

من أحب الله يا ابنتى عشق مراده وهان عليه كل شىء لأنه فى سبيل رضا الله ...

سفينة الحب فى بحر الهوى وقفت فامنن على بريح منك يجريها
لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

إن الله يحب عباده ويتقرب إليهم بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصى . خيره إليهم نازل وشرهم إليه صاعد .. أحبى الله يا ابنتى

يقيك غوائل نفسك وشرور الدنيا ومكائد الهوى والشيطان ، فإنها أربعة أعداء لا ينجو من أذاها إلا من رحم الله واجتبى ..

إني بليت بأربع يرمينني بالنبل عن قوس له توتير
إبليس والدنيا ونفسي والهوى يا رب أنت على الخلاص قدير

كفاني وعظاً الآن يا ابنتي فقد أثقلت عليك .. وأرى الدمع ينحدر تائباً حاراً على وجنتيك وتلك والله علامة الخير وبشرى الفلاح .. فمن الخير أن أتركك لخلوة مع ربك .. فدموع التائب طريقه إلى مولاه وربه وحبيبه ..

- ١١ -

بالإيحاء تبلغ الآمال
وتتغلب على الصعاب والمشاق !!

يا لهف نفسى على نفسى كأن الدنيا أخذت منى كل شىء فى سابق عهدها كأن ذلك كان على سهو منها ، وها هى تصالحنى وتربت على ظهرى وتقول لى :

لا عليك .. أبعدتك عن خالقك طوال حياتك وها قد قادك شيخك وندمك إليه .. أفقدك الموت كل أحبتك وها أنا ذا أبدلك عنهم بالواحد تلو الآخر .. عوضتك عن أبيك بأب صالح حانى ، وسوف أعيد لك كل أحلامك . .

أجل سيدى .. كنت أسمعها تقول لى ذلك كلما رضيت عن أمر تجلبه يد الأقدار التى أضحت حانية علىّ مستجيبة لرغباتى .. بعد أن عذبنى الدهر طويلاً .. وأضنانى ..

فيا الله ! كم لى من ليال ... به سلفت وأيام عذاب
إذ النعماء وارفة علينا ... ومرعى اللهو مخضر الجناب

لكن خوفى كان يعاودنى الفينة بعد الفينة وكأنه يحذرنى قائلاً :

كذاك الدهر ملاق خلوب ... يغر أخا الطماعة بالكذاب
فلا تركن إليه ، فكل شىء ... تراه يؤول إلى الذهاب

فما أبصرت فى الإخوان ندبا يجل عن الملامة والعتاب
ولكنا نعاشر من لقينا على حكم المروءة والتغابى !!

ولا شك أنك حائر من شأنى .. متشوق لتعرف سر ذاك التناقض الغريب .. فرحة مفاجئة بالدنيا وتخوف من مفاجآتهما فى ذات الوقت وسأروى لك السبب فى ذلك حتى لا تتهمنى بالجنون أو الاستخفاف بك حاشاى أن أكون هذه أو تلك ..

لقد تعرفت على الطبيب النفسى وتوالت زياراته لنا ولن أبالغ فأقول : إننى أحببته من أول لقاء .. فلعلك خمنت أن ذلك هو سر سعادتى المفاجئة .. كلا يا صديقى .. فقد بلغت الأربعين وتلك سن النضوج والحكمة .. لكنى أعجبت بجاذبيته وشخصيته الحكيمة الودودة المتفائلة وبوجهه البشوش رغم أحزانه التى رواها لى فى اللقاء الثانى وبمنتهى البساطة والألفة كأنه يروى لى قصة قرأها فرق لها قلبه أو موقفاً عابراً مر به مرور الكرام .

وتكررت اللقاءات لأجد نفسى أنسى أحزانى فى أحزانه وحياتى فى حياته .. عشت آلامه وأفراحه ، أحببت ولديه دون أن أراهما فقد خمنت أنهما ظريفين ودودين مثله .. ولم يكن ذاك حباً فيه بل حباً فى تلك النفس المحبة للحياة رغم قسوتها فقد كانت على خلاف نفسى الحزينة فهربت من نفسى إلى نفسه وأذبت همومى فى همومه ..

كل الأمر إذن أنه إنسان عرفته فأجللته وأكبرته ، أحببت إنسانيته

ولطف معشره وسعة علمه بالنفوس ولا غرو فهو طبيب أفنى شبابه فى دراسة أسرارها وغاص فى لججها ، فلا تلمنى على إعجابى به فلست بغافلة القلب حتى أغفل عن كل تلك السجايا الكريمة التى ما رأيتها مجتمعة فى شخص مثل ما اجتمعت فيه .

ولم نكن نجلس وحدنا منفردين أبداً بل كنا دائماً فى حضرة شيخنا الحبيب وكان دائماً ينادينا باسماً بقوله : يا ولداى العزيزين .

وهكذا مرت شهور ولقاؤنا دائم التجدد فقد اعتاد على زيارتنا كل أربعاء لنقضى ليلة سمرنا العذب فى حديقتنا الفيحاء .. أما فى ليالى الشتاء فقد كان مجلسنا حيث الدفء بجوار المدفأة فى منزل الشيخ .. نحتسى المشروبات الساخنة ونتجاذب أطراف الحديث وتتنوع الموضوعات فلا ينتهى النقاش ونقرأ كتباً قيمة متنوعة فى مكتبة معلمنا الشيخ تارة فى الأدب وأخرى فى الإنسانيات وثالثة فى الدين أو التصوف .. حتى قادنا الحديث ذات ليلة دفيئة إلى بحور علم النفس .. فسالت الطبيب سؤالاً طالما جاش بخاطرى فحير فؤادى :

- ولكن كيف يا أستاذى الطبيب يمكن لأحدنا أن يقهر نفسه ويتحكم فى اضطرابها ؟

- الأمر فى غاية البساطة .. عليك بذكر الله دوماً قبل أى شىء ؛ فذكر الله يورث سعادة القلب والنفس .. وإنه ليمر على القلب أوقات أقول فيها : إن كل أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب ..

- مساكين يا سيدتى أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها !! سألته :

- وما هو أطيب ما فيها ؟

- محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والإقبال عليه والإعراض عما سواه . إن محبته عز وجل شغلت قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره فليس لهم فى الدنيا مع حبه عز وجل لذة تدانى محبته ، ولا يؤملون فى الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم .

ليس للقلب والروح ألذ ولا أطيب ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرة العين به والأنس بقربه والشوق إلى لقائه ورؤيته .. وإن مثقال ذرة من هذه اللذة لا يعدل بأمثال الجبال من لذات الدنيا ..

وهنا ترقرق الدمع فى عينيه وأطرق إلى الأرض ملياً .. وكف عن الحديث ، فاستطرد الشيخ :

- يكفى فى فضل هذه اللذة وشرفها أنها تخرج من القلب ألم الحسرة على ما يفوت من هذه الدنيا حتى إنه ليتألم بأعظم ما يلتذ به أهلها ويفر منه فرارهم من المؤلم !!

وهذا يبعثه على دوام السير إلى الله عز وجل وبذل الجهد فى طلبه وابتغاء مرضاته .. وتلك حلاوة الإيمان من لم يذقها فليرجع وليقتبس

نوراً يجده من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً .

– ذاك ما أنساك مصائبك يا أبتى ؟

– بلى يا ابنتى ؛ فمن سلم له محبوبه لم يبال بما فاته ولا يجزع على ما ناله فإنه يرى فى محبوبه عوضاً عن كل شىء .. فكل مصيبة عنده هينة إذا أبقت عليه محبوبه .. هكذا ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة .

أصلح نفسك يا حيرانا يصلح لك ما بين يديك
وإذا نادى منادى الله فدع دنياك وقل لبيك
تلقى يسراً كل أمورك كل الصعب يهون عليك
والأكوان تحوطك حباً والأشياء تحن إليك (١)

– وما هى الخطوة الثانية بعد ذكر الله يا طبيبنا العارف بالله ؟

– هذا لقب أحبه وأتمناه يا سيدتى .. وليتنى أبلغه يوماً .. إن الخطوة الثانية تخص النفس كعلاج لها عندنا أطباء النفس نسميها (بالإيحاء الذاتى) وكثير يرددون تلك الكلمة لكنهم يقتصرون على معرفة سطحية بها ، ولذا فهم يسيئون استغلال هذا السلاح القوى من أسلحة إصلاح الشخصية ..

إن الإيحاء الذاتى بأبسط توضيح هو تخيل الأفضل وتحويل الأفكار

(١) قيثارة من شاطئ النسيان : خالد محمد سليم .

إلى قوى فعالة تساعد على بلوغ ما نصبوا إليه من آمال .. وما أشبه الشخص الذى يحسن استغلال الإيحاء الذاتى بالنوتى الذى يستعين بشراع قاربه ينشره على أكمل وجه فإذا القارب يسرى فوق الماء سهلاً سريعاً !

- لا أفهم ما تريد قوله يا سيدى .. هل بالإيحاء يمكننى أن أحول همومى إلى سعادة ؟

- استمعى إلى .. لنفترض أننا سمحنا لفكرة معينة أن تنفذ إلى عقولنا .. فلسوف تبادر إرادتنا إلى مقابلة هذه الفكرة سواء بالإعراض أو بالقبول .. تبعاً لما تتضمنه ، وكلما بدا الشىء لخيالنا جذاباً أو مواتياً لما نهفو إليه ازداد إسراع إرادتنا فى الانجذاب نحوه ..

- إذن الإيحاء الذاتى هو أن نختار الأفكار ذات القوة المحفزة الدافعة فنحفظها فى عقولنا إذ أنها لا تلبث أن تنبه إرادتنا وتبعثها على العمل وتولد فى نفوسنا انفعالات مفيدة .

- بلى يا سيدتى .. وإن شخصية قوية كشخصيتك جديرة بأن تقدر على ذلك وتتمكن من استغلاله ..

- أشعر أن نفسى طاغية على تدمرنى .. إنى أكرهها ..

- أصلحيها .. تحدى بإرادة عقلك طغيانها .. رددى لنفسك العبارات التالية :

- بوسعى أن أبدل شخصيتى المنهزمة بسهولة بالإيحاء الذاتى .

- بوسعى أن أقوى شخصيتى عملياً .

- أستطيع أن أحسن مركزى وأن أنجح فى كل ما أريد .

- سأكتب فى كل يوم مزيداً من الانتصارات لنفسى .

ولا تتحولى عن طريقك هذا بعد سيرك فيه خطوات ..

وليس هناك سبيل للنجاح فى بناء النفس أفضل من ترويضها على العمل البناء ونفع المجتمع .. إن خلية النحل مثلاً تخصص لكل فرد وظيفة ومهمة .. الملكة تضع البيض والشغالة تبحث عن الأزهار فتمتص رحيقها وتعنى بالخلية ، أما الذكور فباقتراب الشتاء من نهايته تكون قد أدت الدور الذى خلقت من أجله فيقضى عليها سكان الخلية .. فمعنى ذلك أن الإنسان إذا انتهى دوره ولم ينشغل بدور جديد لم يعد أهلاً لأن يعيش !!

-١٢-

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾

[الشورى : ٢٨]

كم تمنيت أن أكون أسرة صغيرة .. فأحيا مع زوج يشاركنى هذه الحياة ، يحبنى ويواسينى ويحنو على ويذود عنى .. وأنجب طفلة أخرى تعوضنى عن فقيدتى الصغيرة وأحلامى الراحلة .. وقاربت الأيام دون أن أشعر بينى وبين حلمى ..

أجل .. ودون تخطيط منى .. لقد قال لى الطبيب ذات يوم ونحن فى حديقة شيخنا الحبيب ..

- إننى تعس يا سيدتى .. كم كنت أتمنى لو تزوجت امرأة مثلك تقدر قيمة الزواج وتعرف حقوق الزوج .. ترى إذا تقدمت لخطبتك وآثرت جوارك ما بقى لى من عمر - وأنا الآن كما تعلمين فى سن الكهولة أخطو نحو الخامسة والأربعين - فهل تقبلينى لك زوجاً وفياً مخلصاً يعوضك عما فاتك ويعتاض بك عن عمره الضائع ؟!

بهت من عرضه السخى وحديثه الرقيق ونظراته المستعطفة ، فلم تسعفنى الكلمات وصرت كغريقة تبحث عن أنفاسها .. فقال لى :

- هل أسأت التصرف يا سيدتى برجائى هذا ؟

تمالكت نفسي وقلت له :

– صدقني يا سيدي .. ليتني عرفتك منذ عشرين عاماً .. لكنت عشت أهنأ حياة وأرغد عيش .. ولكني الآن .. حائرة .. حيرة شديدة تضاهي حيرتي طوال سنوات حياتي الغابرة .. إنك بالنسبة لي طوق نجاة .. يكاد يكون الأمل الوحيد المتبقي لي لاسيما وأني في الأربعين .. وليس لمثلي أن تطمح في مثلك ..

– كلا .. لا تقولي هذا .. فمن لي بسيدة عفيفة خلوقة تعرف الله تسعى لختم كتابه تذكره آناء الليل وأطراف النهار .. إنك نجمة في سماء دنيانا المظلمة .. فلا تحرميني من نورك الذي أرجو هدايته في ظلمات حياتي الموحشة الباردة ..

– لكنك متزوج .. كيف أبني سعادتي على أنقاض زوجة مسكينة وأبناء لا ذنب لهم ولا جريرة .. ؟

– ليست زوجة .. بل هي عذاب مقيم .. إنها ريح هوجاء تدمر كل ما حولها وتذره قاعاً صفصفاً .. إنك بزواجك مني ترحمين رجلاً بائساً كاد يفشل في عمله وأبناء تعساء يحتاجون لبيت هادئ وأم ترعاهم وتحنو عليهم وتهيئ لهم تربية قويمة ..

سأتركك فترة تفكرين لعلك ترحمين قلبي الصادي ونفسك المعناة وأبنائي المساكين الذين لم يعرفوا معنى الأمومة أبداً .. إنها لا تستطيع

الحنو حتى على أبنائها .. إنها الأنانية مجسدة .. كم ضحيت فى سبيل بقاء كيان هذا البيت ولكنى تعبت .. صدقينى إنك الرحمة التى ساقتها الأقدار إلى لصبرى الطويل ، فالله مع الصابرين ..

رويت لأبتى ما حدث فنصحنى بأن أستخير الله لعل الله يهيئ لى من أمرى رشداً .. فقلت له :

– كيف أستخير وأنا مقتنعة بفساد الفكرة نفسها ؟ كيف أهدم كيان أسرة ؟

– يا ابنتى .. استخيرى الله .. فكل منا جاهل بمواقع أقدامه فكيف بمستقبل أيامه ؟! (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

– سوف أفعل يا أبتى .

استخرت الله أكثر من مرة ولكنى لم أر شيئاً .. وغاب عنا الطبيب فترة ، فقلت ربما انصلحت أحواله واستقامت حياته وراجع نفسه فندم على ما قاله .. إلى أن جاء يوم عصيب ..

رجعت من عملى فوجدت شيخى فى حالة اضطراب شديدة .. وقال لى :

– أدركينى يا ابنتى .. لقد أصيب الطبيب فى حريق ونقلوه إلى المستشفى .. هيا بنا إليه ..

ذهبنا إلى الطبيب الذى بات ضعيفاً فى أيدى الأطباء فوجدناه فى

غيبوبة وشرح لنا طبيبه حالته فقال :

- لقد حاول إنقاذ زوجته من الاحتراق فباءت محاولته بالفشل .. ماتت منتحرة .. يبدو أنها كانت تعانى من مرض عصبى .. وحرقت ذراعه لكن حالتها مطمئنة وستشفى بإذن الله . . لكنه كان يعانى اختناقاً بسيطاً وسيفيق قريباً بإذن الله .. إن القدر أنقذه بأعجوبة !

- سألته فى لهفة : أين الطفلان ؟

- الحمد لله .. لم يصل لنا غيره وقد سمعت من جاره الذى أحضره فى سيارة الإسعاف أن الطفلين كانا فى مدرستهما .

مرت أيام صعبة على طبيبى الذى زودنى رغبة جديدة فى الحياة .. كان حزيناً على زوجته رغم ما أصابته به فى حياتها وبعد مماتها .. أقدمت على الانتحار تهديداً له حتى يوافق على أن يكتب باسمها كل ما يملك لأنها لا تثق فيه !! لكنه رفض بإصرار .. أصابها مس من الشيطان فأخذت تمزق له أوراقه وكتبه ثم أمسكت بالثقاب تهدده بأن تشعل النار فى نفسها لترغمه على الإذعان لها فأرادت مشيئة الله أن تنتقم منها لبطشها وسفهها وسوء خلقها وجحودها كل ما تركه لها هذا الزوج المسكين قبل ذلك فأمسكت بها النار لتشوى جسدها شياً .. واحترقت ذراعه حين حاول إطفاء النار .. وأنجاه الله من سوء ما أصابها ومصيرها الأسود .. ولعذاب الآخرة أشد وأبقى !!

مرة ثانية تحتار نفسي : كيف يكون الطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين ؟

لقد تعذبت مع زوجي عذاباً لا يعلمه إلا الله .. ثم هذا الزوج النقي يرى كل هذه الآلام مع زوجة حمقاء لا تعرف قيمة نعمة الله عليها ..

وتذكرت الآيات الكريمات : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [التحريم : ١٠ ، ١١] .

فعرفت أن الحكمة هي الابتلاء .. وإلا كنا في جنات النعيم .. والله سبحانه يقول : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ . [الأنبياء : ٢١] ربما ابتلى الله رجلاً قبيحاً بامرأة حسناء لينظر الله أيشكر العبد أم يكفر ؛ ولينظر هل تصبر المرأة أم تسخط .

وقد تعلمت من شيخي أن من وقف على موجب الحس هلك ومن تبع العقل سلم ؛ لأن مجرد الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا . وأما العقل فإنه ينظر إلى المخلوقات فيعلم وجود خالق منح وأباح وأطلق

وحظر وأخبر : إنى سائلكم ومبتليكم ليظهر دليل وجودى عندكم بترك ما تشتهون طاعة لى . وإنى قد بنيت لكم داراً غير هذه الدار لإثابة من يطيع وعقوبة من يخالف ، فليعتبر ذوو الفهم .

لا أريد أن أطيل فى سرد أفراحى فلعلك يا صديقى مللت حديثى .. لكننى حصدت ثمار صبرى ورجوعى لله .. تزوجنا ولملم جراحى فداواها ، صار الطبيب النفسى طبيباً خاصاً لى .. وسكن ولداه حبة فؤادى .. وجدت شمسى تشرق على حياتى من جديد .. وأنزلنا شيخنا الحبيب منزله سكناً لنا جميعاً وأبى أن نفارقه حتى يفرقنا هادم اللذات – على حد قوله – وفاجأنى ذات صباح فقال لى ونحن منفردين نروى حديقتنا الغناء وقد ذهب زوجى لعمله وذهب الولدان إلى مدرستهما :

– بنيتى .. لقد تنازلت لك فى أوراق رسمية موثقة عن المنزل بحديقته أصبحا ملكاً لك .. أترين القدر قد وفاك طول صبرك ؟

أترانى قد عاملتك كابنتى .. أترانى كنت أباً صالحاً لك ؟

عقدت الدهشة والمفاجأة لسانى لحظات .. وأخذ الدمع ينحدر من عينى عرفاناً لله على نعمه وعجباً من قلب شيخى العطوف وعطائه الكبير .. ماذا تقول لهذا الرجل الملائكى لو كنت مكانى .. ؟

ثم اقترب منى ومسح بيديه المعروقتين دموعى وخلع مصحفاً كان

يعلقه على صدره وألبسنيه وقال لى :

- بنيتى .. لا تخلعيه ما دمت على قيد الحياة ..

هل لى أن أثقل عليك بطلب يا حبيبة أبيك ؟

أتمنى أن أدفن هنا فى هذه الحديقة بجوار مصلاى إذا وافتنى منيتى فلا مفر من الموت ...

فليس دون الحِمام مبتعد وليس نحو الحياة مقترب
كل امرئ سائر لمنزلة ليس له عن فنائها هرب
مسلط فى الورى ؛ فلا عجم يبقى على فتكه ولا عرب
فكم قصور خلت وكم أمم بادت ، فغصت بجمعها الترب
فمنزل عامر بقاطنه ومنزل بعد أهله خرب
فتب إلى الله قبل مندمة تكثر فيها الهموم والكرب
فإن للدهر لو فطنت له قوساً من الموت سهمها غَرَبُ (١)

أجهشت بالبكاء بين يديه وركعت على ركبتى ألثم يديه وقلبى يعتصر ألماً وخوفاً عليه ..

وكأنما شيخى كان يقرأ سطوراً من اللوح المحفوظ .. أجل .. لكأنه كشف له عن صفحات القدر وسمع الأمر الإلهى لملك الموت بالمجئ إليه ليجيب نداء ربه .. وافاه أجله وهو ساجد فى مصلاه ليلة الجمعة من

---

(١) غرب : لا يعرف من رماه .

نفس الأسبوع الذى حدثنى فيه ذلك الحديث الذى قبض قلبى .. ونفذت وصيته فدفنته حيث تمنى ليسعد فى مثواه الأخير ، وليظل قريباً منى ومن زوجى الذى بكاه بكاء دامياً ، لقد كان المصباح الذى يضىء لنا السبيل ...

ورغم حزنى الشديد عليه إلا أننى لم أنس ربى كما كنت فى صغرى ولم أندفع فى مشاعر الحزن واليأس لدرجة السخط .. بل لملمت وجعى سريعاً وزرعت الورود حول مدفنه واللبلاب عليه ليكون قريراً فى جنته ظاهراً وباطناً .. ولا أظن إلا أن الله قد أحياه الحياة التى عاش ينشدها طوال عمره .. مع المقربين فى روح وريحان وجنات نعيم .. ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس : ٦٢] .

وبعد مرور سنة على وفاته فوجئت بخبر لم أعجب له وإن كان ذكرنى بأوجاع كنت قد نسيتها ، لكن من الواضح أن ذكريات الماضى لا تنمحى بل تفرض نفسها علينا وقتما تشاء .. تتمسك بإصرار شديد بأهدابنا لتفسد علينا رغد عيشنا وحبور حاضرنا ..

عرفت أن أخى صار من تجار المخدرات .. لكنى عرفت متأخرة .. فقد نشرت الجريدة صورته مع قصة القبض عليه .. وبعدها حكم عليه بالمؤبد .

هدّأ زوجى الحنون من وقع الخبر على .. ولم يندم على ارتباطه

بى .. كان دائماً عند حسن ظنى به .. وقال لى :

- ليس منا أحد ينتقى أهله .. إنهم أقدارنا .. ولا مهرب من الأقدار . وثقى يا منية نفسى أننى لا أجد فى كل هذه الدنيا امرأة سواك يسعدنى أن تكون زوجتى ويشرفنى أن أحملها لقبى واسمى وتكون محضناً لأولادى .. فهدئى من روعك وكفاك ما عانيت .. فأنا لا أطيق رؤيتك حزينة .. ثم إنى قد جهزت لك ما ينسيك .. سنترك المنزل وننتقل إلى شقة فسيحة بالجوار .

- ولماذا ؟ تعرف أننى لا أستطيع البعد عن هذا المكان ..

- ومن قال أنك ستتركينه ؟ نحن جميعاً نحب هذا المكان ولا نطيق الابتعاد عنه .. لكننا سنقيم عليه ملجأ .. ألم يكن ذلك هو حلمك الكبير ؟

- بلى .. ولكن متى رتبت كل ذلك .. ؟ إنك رائع .. !!

- ذلك ترتيب الله تعالى .. ومن الغد سيتم إكمال بناء طابقين فوق المنزل .. وما هى إلا شهور قليلة حتى نفتتح الملجأ لتكونى المشرفة الأولى عليه ولتكفلى ما لا حصر له من الأيتام .. فكل يتيم سيلجأ إليه سوف تكونين كافلته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

وأتمنى أن تسمحى لى ببعض الأجر !!

تم كل شىء كما وعدنى .. وقبل أن نفتتح الملجأ اصطحبنى معه

وأولادنا لأداء فريضة الحج .. حيث بكيت وتطهرت وكسانى ربى ثوباً طاهرا أظنه غسل أوزارى ومعايبى .. فالله غفور رحيم ..

وحين عدنا .. افتتحنا الملجأ وضممت الصغار لأحضانى ألثم فى كل منهم ابنتى التى أراد الله أن يقبض روحها وهى بعد فى سن الرضاع .. ألا ما أرحم الأقدار بنا لو نعلم .. بل ما أرحم الله بنا ..

خليلى لا والله ما من ملمة تدوم على حى وإن هى جلت
فإن نزلت يوماً فلا تخضعن لها ولا تكثر الشكوى إذا النعل زالت
فكم من كريم قد بلى بنوائب فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة فلما رأت صبرى على الذل ذلت

وحمدت الله على أن جعلنى فى آخر أيامى كافلة للأيتام أرباب المذلة والضعف .. فليس أفضل من حماية الضعفاء وتربية الأيتام وكفالة حياة طيبة لهم .. وشكرت الله على أن أمدنى بزوج وفى كريم الخصال سخى النفس جواد اليد أعاننى على ما تمنيت وحقق لى ما أحببت وهو رحب الصدر واسع البال مطمئن النفس منشرح الصدر .. وتذكرت الآية الكريمة : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ تلك الآية التى علمنيها أبتى الشيخ رحمه الله حين كنت تائهة حائرة يتملكنى الشيطان وتغتالنى نفسى وأوهامى وظنونى الجائرة . فعلمت أن كل شىء عنده بمقدار .. وعلمت أنه سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..

وأخيراً .. سرت بروحى التى تعذبت من الموت كثيراً أبحث عنه لأقول له : الآن عرفتك أيها الموت .. وتصالحت معك .. لم تعد مارداً يختطف أحبتى ولا قاسياً يفر من رحمتى .. بل صرت طريقى إلى الله .. صرت صاحباً أنتظره ليقودنى إلى ربى الذى اشتقت إليه .. فسامحنى أيها الموت واقبل معذرتى ..

وبعد ...

أتراني بالغت حين قلت لك يا صديقى فى بداية قصتى إن حياتى جديرة بأن أروى لك أحداثها .. ليس لأنى مغرورة .. ولكن لأن قصتى هى قصة نفس هربت من الخالق رغبة فى الحرية .. فأسرتها قيود الدنيا واغتالتها الشياطين فهل لنا من خالقنا مهرب .. ؟

هذه كانت حياتى وتلك تجربتى .. وأنت فى النهاية سيد الموقف ولن أغضب من حكمك على فما عاد فى القلب مكان لغضب !!

٢١/ ٣/ ٢٠٠٤م

المحلة الكبرى

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	٣
١- من حال إلى حال	٥
٢- الغدر نار تحرق الأوفياء ولا يشعر بلهيبها الغادرون	١١
٣- السعادة شبح لا يراه إلا المجانين	١٧
٤- كف أيها الإنسان عن التفتيش عن مصدر الشر .. إنه أنت ..	٢٥
٥- التطلع إلى الاستقرار والأمان	٣٣
٦- الأخ عتاد الحياة وذخيرة المستقبل	٣٩
٧- الدنيا إلى زوال	٤٩
٨- أسهرتنى الحادثات............................	٥٣
٩- يا عين صار الدمع فيك سجية	٦١
١٠- لا تقنطوا من رحمة الله	٦٧
١١- بالإيحاء تبلغ الآمال	٧٧
١٢- هو الذى ينزل الغيث	٨٥